على الأكياس

حنا مينا

إلى الصغير العزيز (و.ع) الذي سألني:
"كيف، و متى، بدأت الكتابة؟".
(حـ ...)

لم يعد والد ذلك المساء أيضاً، كان قد ذهب ليبيع المشبك [1] في قرى اسكندرونة. و رأيته، في الصباح، يحمل الطبق النحاسي المليء بأقراص أفعوانية صهباء من الحلوى. فيركزه على رأسه، فوق الكعكة القماشية، و يرسم الصليب، و يطلب رضى الوالدين، و يرفع "السيبة" المتصالبة التي تفتح و تطوى، فيعلقها بكتفه، و يضع السلة الفارغة في مشجب زنده، و يمضي مشيعاً بدعاء الأم الخائفة أبداً من شيء مجهول، و بدعائنا، أخواتي الأكبر و أنا الصغير، في أن يعود و قد باع حلواه، و حمل إلينا الخبز و الطعام..

و جلست والدتي في الضحى، ترقع ثيابنا و تغني غناء حزيناً و تبكي. رأيتها من النافذة، فدخلت. كانت قد فتحت الصندوق لإخراج بعض الألبسة، و اغتنمت فرصة غيابي فأخرجت فستاناً صغيراً لطفلة بنت سنتين، هي أختي الصغرى التي ماتت منذ وقت قريب، و جعلت تشمه و تبوسه. كانت تناجيها و كأنها لا تزال في الفستان الذي رأيتها فيه قبل أن تموت، و سمعتها تقول لها : " يا حبيبتي، لماذا رحلت بسرعة؟ لماذا زعلت من أمك؟ ألا تشتاقين إليها؟ ألا ترجعين؟ و لن أراك، بعد، أبداً؟ و هذا الفستان، و هذه اللعبة (و كانت قد خاطتها لها من قماش) كل ما بقي منك، إذن؟".

انسللت، فقبعت وراءها. بكيت أنا أيضاً. كنت مثلها. بحاجة إلى ذلك، فسمعت شهقاتي و التفتت إلي مذعورة. حاولت مسح دموعها، و ابتسمت بتشنج للتمويه علي: "يا صغيري!-قالت- يا ولدي! لماذا رجعت بسرعة؟ اذهب و العب مع رفاقك؟" و غمرتني و قبلتني.

حضنت رأسي بصدرها. طمرته في عنقها فشممت، آنذاك، عطر الأمومة من العنق الحار بفعل التوتر و الدمع، و أحسست قطرات على صفحة خدي، و يداً تداعب خصلات الشعر الخرنوبي الذي يكلل رأسي، ثم رفعت وجهي إليها. و نظرت في عيني .. كانتا حمراوين .. لم أكن قادراً على ضبط نفسي و لا أريد، و الدمع ينثال على خدي .. فقالت و هي تخرج نصف قرش من جيبها: "اذهب و اشتري كعكة .. لا تبك. الرجال لا يبكون". سألتها: "و النساء؟" فقالت: "و النساء أيضاً!" .. و صمت غير مقتنع. فقالت: "النساء .. أحياناً!".

عند الظهر جلبت لنا "الفريفيرة"، و هي نخالة البرغل مع البصل، و أرسلت شقيقتي فاستعارت قليلاً من الزيت من الجيران. و سلقت بيضة و وضعتها أمامي .. كنا خمسة حول طبق القش: والدتي و شقيقاتي الثلاث و أنا، أما الشقيقة الرابعة فقد غادرتنا. لم أكن أعرفها .. و من الهمس الذي يدور عرفت أن حادثاً وقع لها. كانت خادمة في أحد البيوت ثم فرت مع رجل و تزوجته، أحست أنها خالفت إرادة الأسرة فنفوها و تجنبوا، في البيت، ذكرها .. و كنت، قبل ذلك، قد رأيت عربة حنطور تذهب و تجيء على الطريق العام، قرب حارتنا، و توقفت العربة و نزلت منها سيدة سألت الأولاد عن شيء .. فأشاروا إلي، و ركضت و حضنتني، و قبلتني، و دست في جيبي نقوداً، و أسرعت إلى العربة فغابت، و هرعت إلى البيت فقصصت ما جرى على والدتي، و للحال انطلقت نحو الطريق .. و انتظرت حيث أشرت لها، وانتظرت طويلاً، لكن العربة لم تظهر، فعادت كسيفة .. و أحسب أنها بكت سراً في تلك الليلة، و أخذت النقود فاشترت بها شموعاً و بخوراً .. و عجبت من فعلتها، فأوضحت لي: "هذه نقود ليست لك!" فاحتججت: "لكنني لم أسرقها!" فقالت: " هذه صدقة، و لا أريدك أن تقبل صدقة من أحد"، و أوصتني ألا أخبر والدي حتى لا يؤنبني، و لا أقول ذلك لأحد أيضاً.

و هكذا وعيت على شقيقاتي الثلاث فقط. و قد رأيتهن و نحن حول طبق القش، ينظرن إلى البيضة أمامي برغبة و حسرة. كن قد تعلمن معاملتي كأخ ذي وضع ممتاز. و كان في وسعي أن آكل البيضة دون حرج، و لكن شقيقتي الصغرى، و قد ماتت بعد ذلك بسنوات، لم تستطع الامتناع عن لمس البيضة المقشرة بإصبعها، و عندئذ تدخلت أمي و قسمت لها جزء صغير منها.

في المساء تسمرت عيوننا على الدرب. و لم تطق الأم صبرا فخرجت من حينا المستنقعي إلى الطريق العام . لم تعد إلا بعد هبوط الظلام .. كنت راكعاً على الخوان أرقب عودتها مع الوالد من النافذة، فلما رأيتها بمفردها جزعت، و انكمشت و تكورت حيث أنا، فدخلت البيت و أضاءت فانوس الغاز الواهن، و أغلقت الباب و جلست على الحصير و شقيقاتي حولها.

كان من عادة الوالد أن يسعل أو يتنحنح إذا عاد. يعرف أننا، في الليالي التي يتأخر فيها، آذان تصغي بكل طاقاتها و لهفتها إلى ما ينبئ بعودته سالماً. و سعلته ربما، بشير و تطمين لقلوبنا الواجفة، و إذ نتأكد منها نتراكض إلى الباب، و كثيراً ما كنا نفرح بعودته و نأسى لمرآه خائباً، حاملاً طبقه النحاسي و حلواه الكاسدة. و في هذه الحال كنت أكابد هماً صموتاً. كان عذابه ينثال في صدري كذوب رصاص، كبكاء والدتي على أختي الضائعة و الأخرى الميتة، كدخان فانوسنا الغازي حين تفرقع بلورته و ليس لدينا سواها، كنظرات الأخت الصغيرة إلى الأم في الليالي التي ننام فيها بغير طعام.

و قالت والدتي تشجع نفسها: "سيعود مهما تأخر .. في أيام الصيف يقصد القرى البعيدة، و ينتظر حتى يبترد الجو". فسألتها شقيقتي الكبرى: "و لماذا القرى البعيدة؟ ألا يخاف؟". فقالت الأم: "لكي ينفق المشبك يا بنتي .. القرى القريبة ليس فيها خير .. الفلاحون فقراء مثلنا، و البائعون لا يصلون إلى الجبال .. أبوك وحده يصل

إلى هناك .. يعرفونه و يقبلون عليه". فعادت الشقيقة تسأل: و يعود وحده في الليل؟ و كيف، في العتمة، يعرف الطريق؟ و أنت، في حكاياتك تقولين: الجبال ملأى بالجن و الوحوش و المشلحين [2]؟". فانتهرتها، عندئذ، بضيق: "اسكتي، الغائب لا يفولون [3] عليه!". و ساد صمت بلغ فيه التوتر أقصاه، خيل إلي، أنني أسمع وقع خطى، فأنصت بجماع حواسي. و ضعت أذني على ضلفة النافذة، فأثارت حركتي الانتباه، لكن وقع الخطى كان وهماً فأمسكنا شفاهنا عن الكلام و رحلت عيوننا على دروب الجبال تتقفى الأثر، و تتصور الأب الحبيب، في الوديان تارة، و في المرتفعات أخرى، يتخبط بين الشوك و الحجارة و من حوله الظلام و عواء الذئاب، حاملاً طبقه و سيبته و سلته وحيداً، تعباً، مغبراً و خائفاً مثلنا.

اقترحت والدتي أن نصلي. معنى هذا أنها يئست من عودته الليلة. كنا نعرف مراسيم هذه الصلاة على اسم الغائب، و نقبل عليها باندفاع. و في صف واحد وقفت مع شقيقاتي أمام أيقونة العذراء، و أمنا وراءنا، و تلونا: "أبانا الذي في السموات" أولاً، و تلت أمي و شقيقتي الكبرى: "أومن باله واحد" بقدر ما تحفظانها، و سكتنا نحن، ثم رددنا مع الأم الأدعيات: "يا رب احفظ والدنا و أرجعه سالماً .. يا رب احفظه من كل مكروه، و أبعد عنه الشر، و احمه من أولاد الحرام، و من كل ما يطير أو يزحف أو يؤذي الناس.. يا رب يسر له حتى يبيع حمله ..". و كانت الأم، لسبب لا نعرفه، تقترح ترديد دعاء ما، ثلاث مرات فنفعل. و عند فروغنا مسحت على رأسي، و تناولت صورة العذراء و أدنتها من شفتي، فقبلتها من كل روحي، فيما هي تقول: "يا سيدتي العذراء! لا تكشفي رأسي أنا الأمة الفقيرة، و لا تجعلي هذا الصغير يعيش يتيماً، و احفظينا تحت جناحيك، و تشفعي لنا عند ابنك الحبيب،آمين". و أدارت الأيقونات على شقيقاتي، ثم لثمتها و أعادتها إلى مكانها، و ركعت أمامها ففعلنا مثلها، و نهضت فنزعت غطاءها عن رأسها إيذاناً بانتهاء الصلاة، حيث لا يبقى سوى النوم.

لكنها أعلنت أنها ستحمص لنا شيئاً من الحمص الذي تحتفظ به في علبة على رف المطبخ. و قد بعث إعلانها النشاط فينا، فخرجت مع شقيقتي و أحضرت بعض الحطب، و أشعلت النار و هي توصينا ألا ننام .. و لأن الحمص كان قاسياً، من النوع العجوز، فقد سكبت عليه، بعد تحميصه، قليلاً من الماء في الصاج، و غطته لكي يتخمر، و وزعته علينا ملء حفنتها، محتفظة بقسم منه للغد، و لكي لا نستهلك الغاز، مدت الفراش على الأرض، و اقترحت أن نجلس فيها و نأكل الحمص بدون ضوء، و هكذا مدت يدها إلى الفانوس فأدنته و نفخت عليه فانطفأ، و تمتمت دعاء المناسبة: "الضوء انطفأ و العدو اختفى" و لم نعد نسمع في الظلمة إلا قرقضة الحمص تحت الأضراس .. و بعد ذلك تمددنا كل في موضعه، و أقرب ما يكون إلى الأم، و نمنا و نحن على رجاء: أن تقع المعجزة و نسمع خطى الوالد أو سعلته قبل أن يدركنا النعاس.

هذه الليلة، و قبل أن أغفوا، قررت أن أفعل شيئاً لأجل الأم و العائلة، و فكرت أن أعمل أجيراً في أي مكان. كنت صغيراً، نحيلاً أصفر الوجنتين. و مع أنني أكلت مما سرقه رفقتي أولاد الحي، إلا أنني لم أسرق أبداً. لقد أوصتني أمي ألا أفعل، و قالت أن العذراء تعاقبني إن فعلت، و ربما كنت لا أملك الجرأة على فعل كهذا، غير أن أصدقائي الصغار، الفقراء و المتشردين، القذرين و الملوثين بوحل حينا و أتربته، كانوا يسرقون بعض الأشياء من الميناء و المستودعات، و يبيعونها فأقبلها حين أكون جائعاً. كنا، جميعاً، حفاة في الصيف، بنصف نعل في الشتاء، و كان أصدقائي منهم يحمونني، و يدفعون عني الأذى و عدوان الآخرين، و قد ارتضوا، و لا أدري لماذا، النظر إلي كولد متفوق بينهم، و لعل ذلك يعود إلى نجاحي في المدرسة، و مساعدتي إياهم في الدراسة، و كوني وحيداً و طيباً معهم.

كنت محبوباً من الأخوين فلفاط. كانا شقيين، سارقين، قويين و جريئين في المعارك بين أولاد الأحياء، و كان أصغرهما في صفي، ذكياً، و كريماً، يعمل الآن جزاراً في بيروت. و هو الذي قاد خلال ذلك الصيف، الأولاد إلى العمل على شاطئ البحر. أعلن فجأة أنه لا يريد أن يسرق بل أن يعمل. و قال أنه اتفق مع رئيس عمال في أحد المستودعات على تشغيل من يريد منا، و زعم أن الشغل بسيط أشبه باللعب! فعلى شواطئ بحر اسكندرونة، المرفأ الرئيسي لسورية آنذاك، مستودعات حبوب كثيرة و كبيرة، و لأن البحر بدون ميناء، و البواخر تقف بعيداً، فقد وجدت، و لا أحد يدري من أوجدها، جسور خشبية (صقالات) ممتدة في البحر، ترتبط بالمستودعات بخطوط حديدية، و على هذه الخطوط عربات حديدية صغيرة مسطحة، توضع عليها أكياس الحبوب و البضائع، و دورنا أن ندفع هذه العربات بأحمالها من المستودعات إلى الصقالات و بالعكس.

كان العمال هم الذي يضطلعون بهذه المهمة، و ها هو رجل يقبل بتشغيل الأحداث مكانهم. و ذهب الصغار للعمل، و بعد ساعات هاجمهم بعض الرجال و ضربوهم، فهربوا و تفرقوا، و عندئذ تجلت موهبة الشقاوة و العناد لدى صديقي، و صارت مفخرة حيناً و سبباً لزعامته. فقد أقنعا بعض الأحداث بمحاجرة العربات و عرقلة سيرها، و الحصى كثيرة على الشاطئ. و هكذا انفتحت معركة قاداها بجدارة و شهادة دم على صدر أحدهما من جرح في الرأس. و قد حسم رئيس العمال الموقف بتصديه للرجال الذين ضربوا عماله الصغار. نشب صراع رهيب، فوق الرمال المحرقة، سقط أثرها رجل، فحلمه "اليازرلي" – و هذا اسم رئيس العمل- على كتفه إلى المستودع و ألقاه مثل كيس من العدس في الزاوية، و بعد نقاش تعهد بتشغيلهم في مستودعاته فقبلوا، و سمحوا للأحداث بالشغل.

هذه القصص كان يرويها لي الذين يعملون، فاقترحت أن أذهب معهم، و قبلوا على شرط أن توافق والدتي، و هذه عارضت، خوفاً على صحتي العليلة، فخابت رغبتي، و بقيت عاطلاً متحسراً، مستوحشاً حتى عودتهم في المساء، حين يلتم الشمل، و يقصون علي ما جرى لهم في نهارهم.

أفقت باكراً .. و منذ فتحت عيني بحثت عن الوالد فاكتشفت أنه لم يعد تلك الليلة. دخلت المطبخ، و أفرغت في جيبي بعض الحمص، و قلت لوالدتي أنا ذاهب لأعمل، و ركضت هارباً كي لا أسمع توسلاتها و لا أرى دموعها .. أدركت الصدقين في البيت، فأنبأتهما بعزمي. قلت لهما أن والدي لم يعد، و ليس عندنا طعام، و رجوتهما أن يساعداني .. فقال أصغرهما، بنفس أريحيته و قدرته على الحسم: "امض معنا و لا تخف، لن أدعك تتعب.. ضع يدك فقط على حديد العربة و لا تدفع .. سأكون معك". و بخلافه كان أخوه الأكبر يشك بقبولي في العمل، بسبب صغري و هزالي، فتعهد الآخر بالسعي لدي "اليازرلي" أو بإرغامه على قبولي. كان يثق بنفسه ثقة مطلقة، و أغلب الظن أنه ازداد ثقة بعد المحاجرة، و يعتبرني من "جماعته"، التي جعل من نفسه رئيساً لها و مسؤولاً عنها. و ربما، في مجال الرياسة، يريد أن يكون نداً لليازرلي، حتى و لو فتح معركة محاجرة جديدة.

بلغنا المستودعات مع طلوع الشمس. العمل، آنذاك، كان يبدأ مع طلوع الشمس و ينتهي بغروبها. كنت خائفاً من الرفض، و في سري، طوال الطريق، ابتهلت إلى العذراء. و كلما اقتربنا من المستودعات ازداد ارتباكي و توجسي، فلما رأيت "اليازرلي" دق قلبي، و عمق شحوبي.

استقبلنا هذا بدفعة من الشتائم على الحساب. تهدد الذين لا يعملون أكثر بالطرد، و المشاغبين بالإلقاء في البحر. و رد على عامل تدخل في الحديث "أنت، يا ابن الجرو، ابلع لسانك و إلا قطعته ..

لا أحد يتدخل!". سكت الجميع .. و صاح هو:"هيا إلى العمل .. ماذا تنتظرون؟". فانصرف كل أربعة أولاد إلى عربة، و الرجال سحبوا الشراشير [4] و اتجهوا إلى أكداس الأكياس الخيشية المرتفعة حتى السقف.

كان المستودع، و يسمونه العنبر، واسعاً جداً. له باب حديدي سميك ينزاح، حين يفتح أو يغلق، على شريط حديدي في الأرض. و كانت أعماق العنبر ذات خلوات و منعطفات، و في جدرانه الخلفية، العرضانية نوافذ حديدها ثخين صدئ، عشعش عليها العنكبوت، و علقت بنسيجه كل أنواع الهوام و الغبار و القش، فانسدت أو كادت، فهي لا تفتح و لا تغلق، و لعلها كذلك منذ أنشئت، و النور يرشح منها شحيحاً، و الشمس لا تدخل إلا قليلاً، و المغاور الكهفية للعنبر تبدو معتمة، لآن أكداس الأكياس قد سدت أغلب النوافذ، و من الأرض و الجدران تفوح رائحة عفونة ملحية خانقة، و نتن جرذان ميتة، و شيء كالصنان، في الزوايا. و "اليازرلي"، حاكم هذه المملكة المغارية و المسيطر على كل العاملين فيها، يقف مباعداً ما بين رجليه، و إلية شرواله الأسود المغبر، مكورة بين ساقيه إلى وراء، و في خاصرته "شرشور" رغم أنه لا يحمل الأكياس كباقي الرجال.

فرغ من إصدار الأوامر و التفت إلى صديقي وإلي. وجهه النحاسي الغامق السمرة، و طربوشه الخمري على وجهه العريض الجبهة، و عيناه الأقرب إلى الجحوظ، و شفتاه السميكتان، بلون العنب الخلاسي، و قامته الطويلة العريضة، أخافتني للوهلة الأولى. أطرقت أمامه أنتظر الحكم. و تكلم صديقي قائلاً: "جاء ليشتغل معنا!". و للفور سمعت صوته الأجش المتهكم: "لم يبق إلا هذا الدوري!". و في اللحظة التالية، كانت يده تمسك بثيابي من عند النقرة، و ترفعني في الفضاء. لم أصرخ لأن الرعب عقد لساني. توقعت أن يضرب بي الأرض، لكنه تركني معلقاً في يده، و سار

باتجاه الباب فألقاني، كقط ميت، خارجاً على الرمل. و من مكانه، صاح بصديقي: "اركض أنت إلى الشغل!".

انتهى، بالنسبة إلي، كل شيء. سمعت والدتي، ذات مساء، تصلي و تعاتب يسوعها: "لماذا إذن، يا سيدي، تعاقبنا نحن الخطاة؟ لماذا تخليت عنا؟". و هاهو يتخلى عني، برغم كل تضرعاتي. و تحت وطأة الألم و القهر و الانسحاق، عاتبته أحاسيسي الطفولية بكلمات أقسى. و ثارت أحقادي، دفعة واحدة، على السماء و الكون و جسمي الناحل و ضعفي و دموع أمي و صلواتها. تولد في ذاتي دبيب غضب جامح على الدنيا، و برزت في خيالي، كبقعة الزيت السريعة الانتشار، أكوام الحصى، و تمثلت لي فعلة صديقي التي سمعت بها كأحسن الأفعال و أكثرها نفعاً. و شددت قبضتي على وهم حصاة كبيرة أقذف بها وجه اليازرلي فأدميه.

جاءني صوت صديقي جريئاً أكثر مما توقعت: "لن أشتغل إذا لم يشتغل هو أيضاً" فصاح به مزمجراً: "إلى جهنم يا ابن ...!" و هجم عليه، لكن صديقي هرب، على الرمال، و استدار إليه و شتمه بنفس طريقته. تصورت أنه سيلحق به إلى آخر الدنيا، و يدوسه برجليه أو يمزقه بأسنانه. و بدون وعي، وجدت نفسي ألوي هارباً، واقف وراءه على مبعدة كافية. و على باب العنبر كان "اليازرلي" يقف و يداه في خصريه: "إذا طالتك يدي، أو دست هذه المنطقة، فسنتحاسب يا ابن ..." فصاح صديقي، بلا مبالاة: "و إذا أبقيت من يشتغل عندك من الأولاد أكون ابن .. .يا ...!".

أنا لا أذكر كل الشتائم التي تبادلاها بعد ذلك، كنت، من هذه الجهة، واثقاً من تفوق صديقي، فقد حدثني أنه تمرن عليها يوماً كاملاً. أجلس أخاه في "فاكون" معطل في محطة القطار، و جلس في أخرى، و شرعا في مباراة سباب داعر حتى المساء. و فيما بعد، حين كنا نمر بامرأتين تترادحان، أو عراك بين أشخاص، كان يتوقف و يصغي باهتمام، فإذا مضينا قال لي : "سباب لا يستحق

الذكر، من العيار الخفيف.!". أو سار دون توقف، مشمئزاً، لأنها "خناقة أوادم" أو "الفحش قليل، كأن المتعاركات من بنات الراهبات!". و أشهد أنه، هو، لم يكن يقذع في كلامه. كان يستعمل يده لا لسانه، إنما له هواية في حضور خناقات النساء، فإذا أقذعت أحداهن، و جاءت بجديد أو طريف، ناصرها فوراً، فسألته عن السبب، و أدهشني جوابه: "من يشتم يكن ضعيفاً!" قلت : "و هذه الشتائم التي تجمعها؟" فقال : "أنا من الهواة و قد تفيدني يوماً!".

و هاهو اليوم الذي تفيد فيه الشتائم! و لقد حسدته، و أطلقت بدوري بعض الشتائم الصغيرة في سري، غير أن "اليازرلي" غير موقفه فجأة، إذ رأى أن الأولاد قد أوقفوا العربات و تجمهروا حولنا، و ترك العمل الشغل و تحلقوا حوله. ربما أدرك أن المعركة خاسرة، أو استشعر حطاً لهيبته في عراكه مع هذا الصبي، و قد يكون صديقي أعجبه، بكل بساطة، فعفا عنه، كما عفا صديقي عن ولد شتمه شتيمة لم يسبقه إليها أحد، و المهم أن الرجل صاح به: "تعال إلى العنبر و سنتفاهم". فاشترط عليه: "امسك شواربك فآتي". و ضحك العمل و صفقوا، فانتهرهم و هو يرتجف، لكنه أمسك طرف شاربه و قال: "يا ابن الكلب ... تعال قبل أن يفور غضبي من جديد". و ذهب صديقي إليه، فأمسكه من أذنيه، و هتف أحد العمل: "تذكر أنك وضعت يدك على شاربك!" و قال اليازرلي: "أعفو عنه إذا قبل يدي" ثم تساهل: "إذا سحب شتائمه!". و سحب الصديق شتائمه، و تمت المصالحة أخيراً بفتوى عامل مسن: "فاجرة الخصام ليست فاجرة!". و مضى صديقي إلى العربة و أنا وراءه .. و بوضع يدي على الحديد دخلت دنيا العمل و ودعت الدراسة .. كان ذلك آخر العهد بالمدرسة، و أنا في الثانية عشرة من العمر.

خالطني مس من الفرح. كبر صديقي في عيني، و بدون اقتراح أو طلب، رفعه الأولاد إلى مرتبة الزعامة، و لكي أكون موضع ثقته، و أظهر عرفاني لجميله، شرعت بدفع العربة بقوة. كان البحر الأزرق الميل، سهلاً سماوياً لا حد له أمامنا، و على الرمال

السميدية التي تغرق أقدامنا الصغيرة فيها، يمتد الخط الحديدي، مستقيماً من العنبر إلى الصقالة، و الموج رغاء أبيض حيث، ينداح على العجينة الرملية للساحل الجوني، و الشمس تتوهج في سماء كرستالية اللمعان، و تجفف، بسرعة، نداوة الأشياء.

و على مدرج الصقالة، في خط صاعد قليلاً عن مستوى الرمل، كان دفع العربة المحملة يتطلب ضغطاً أقوى. و قال صديقي: "انتبه، هذا يسبب الفتاق". أما في طريق العودة إلى العنبر، و العربة فارغة، فكان الأولاد يدفعون بقوة، و يقفزون إلى العربة التي تجتاز قسماً من الرمال بفعل الاندفاع عن المنحدر. و قد راقت لي هذه اللعبة جداً، فمنعني من الاسترسال فيها، لأن العربة تخرج عن الخط بفعل تخلخله على الرمل، و تنقلب على من فيها، فتسبب لهم الرضوض و الكسور، سألته: "لماذا يركبونها إذن؟" قال: "ستعلم بعد قليل!". كان أكبر مني بسنتين، و ها هو، دفعة، أكبر مني، بأعوام. هنا ليست المدرسة، هناك كنت أنا عريف الصف، و التلاميذ الكبار يتوددون إلي، و علي، الآن، أن أدفع من نفس العملة، أن أتعلم، و أضع في حسابي أن قوة الجسد، لا قوة الذاكرة، هي المطلوبة .. و لشد ما نقمت على ضعف بنيتي، و حينما صرعني صبي أصغر مني، في نزال فرض علي، انطويت على حسرة عميقة، لاستنتاجي أنه تغلب بسبب تغذيته الجيدة، و تعزيت بذلك و أسفت .. و لم أقل لأحد. كنت أحسب، في ذلك الوقت، الفقر عيباً، و لكم جهدت عبثاً لإخفاء هذا الفقر.

هذا الشعور، بالضعف الناتج عن سوء التغذية، و النقمة عليه، عاودني بعد ساعات من بدء العمل. لم آخذ بنصيحة صديقي. أنفت من الغش، و دفعت بكل طاقتي، و كانت ضئيلة، غير متمرسة، فراحت تتضاءل مع كل نقلة. شرعت ألهث، و كتمت لهاثي ما استطعت، و تجنبت عين "اليازرلي" كيلا أفضح نفسي و أخزي صديقي. و في الدقائق القليلة، بين تحميل العربة الحديدية أو

إفراغها، مضغت حبات من الحمص، و هي زادي الوحيد، في محاولة لاستعادة قواي، و مع ذلك بؤت بفشل فاضح.

هل لاحظ صديقي ذلك؟ هل اكتشف عذابي و رأى نظرة الخوف من فضيحة ضعفي أمام اليازرلي و الصبية و أمامه هو نفسه؟ جائز .. و لكي يخفف عني، اقترح أن أركب العربة و هي تعود إلى العنبر فارغة. رفضت، بل أصررت على الرفض مدفوعاً بالخجل الذي اعتراني. اقترح أن نركب معاً، و نندفع بالعربة على المنحدر كما يفعل الآخرون، و فعلنا، لكن العربة كانت تقطع ربع المسافة على هذه الحال، ثم تقف، فننزل منها و ندفعها، و تغوص أقدامنا بالرمال التي غدت حارة أكثر فأكثر مع تقدم النهار التموزي، ثم استحالت إلى رماد حارق قرب الظهر.

من عاش في فرن المحنة قادر على فهم المعاناة. على جمر الرمال، و تحت لهب الشمس، و أمامنا عربة تحمل طناً أو أكثر، و حديدها حارق، و الجو محتبس، لزج، و الحلق جاف كنا نسير و ندفع العربة. و إذ تخور قواي، حتى درجة السقوط، يشرع دماغي بإصدار نداءات التوسل: "خطوة أخرى .. أخرى أيضاً .. اقتلع القدم اليمنى من الرمل .. اقتلع اليسرى .. مرة ثانية اليمنى .. و مرة ثالثة اليسرى".

حسناً! جرحت قدمي، متشبثاً بكل إرادة الصمود، و متعللاً بأمل الراحة في الظهر. أغمضت عيني حتى أوقف الدوار، و سمحت لنفسي بالغش قليلاً. خففت دفعي، صرت لا أدفع إلا مع صعود العربة مرتقى الصقالة، و حاولت ألا أطأ الرمال، فوجدت العوارض الحديدية أشد حرارة. خطر لي أن أتوقف في منتصف الطريق. كان رأسي يطن، و معدتي تفور بالغثيان الذي يسبق القيء، و نظراتي كليلة، غائمة، و الرمال تتماوج، بهيئة سرابية. شعرت بالاختناق، كالواقف على رأس جبل هواؤه خال من الأوكسجين، و تراءت لي الجلسة عند قدم جدار ظليل، أمنية فوق

الأمنيات .. و يا بيتنا المترب، و العتبة المدحولة، المرشوشة بالماء في القيظ، لو أعود إليكما، و أتمدد مستنشقاً رائحة الأرض و الرطوبة! يا أمي الطيبة. لو كنت قربك، و الرأس على الصدر، إذن لبكيت حتى ملأت خابية المؤونة الفارغة، فأنت، يا أم، تفهمين بكائي، و لا أخجل به أمامك. و أنت يا سماء! آه ما أبعد السماء! و يسوع هناك، و العذراء، و أختي الصغيرة، و أنا، محمولاً على السحب، أذهب إليها .. الآن أرغب في الذهاب إليها، أحسنت في الذهاب هي، و ربما تحت شجرة تلعب، و لو رأتني مقبلاً، و لو رأيتها جالسة، على كرسي صغير، و لعبتها الصغيرة في حضنها، كعهدي بها بيننا!

و قطعنا المسافة إلى البحر، و عدنا إلى العنبر، فامتلأت العربة و بدأ الدفع .. أنا لا أدفع، منذ بعض الوقت لا أدفع .. أضع يدي على الأكياس و أتجرجر .. و أعض على شفتي و أنا أتجرجر، و أقبض، خلسة، على طرف الكيس، و أتعلق به .. لم يعد البحر، و لا البيت، و لا وجه الأم، و لا السماء، لا أختي الصغيرة في المساء، مبعث اهتمام أو رغبة. لم يعد الوالد، و لا الأخوات في وعاء ذكرياتي. انقطع كل شيء. انفصلت عن الوجود و الزمن. تعطل معمل التصور و الإحساس بما هو خارج بالذات. أنا و الرمال، و لا شيء آخر. تتراخى يدي الممسكة بالكيس فأتهاوى على الرمال، و أظل راقداً عليها.

قمت بخطوة، خطوة أخرى، ثالثة، .. و غام الوجود .. بدت السماء تدور بسرعة مرعبة. خيل إلي أنها قبة زرقاء تدور على محور غير منظور، و اشتد دورانها فتصاغرت، انتهت إلى ما يشبه الصحن، ثم فوهة الطاسة، ثم الزر، و غدت، أخيراً، نقطة ضوء، و انطفأت .. و ساد ظلام كامل.

. . .

حين فتحت عيني، كان صديقي أمامي، و وراءه اليازرلي. لم أكترث لوجود هذا الأخير. سيان عندي. ليتركني فقط حيث أنا .. و قرفص صديقي و ربت على خدي. ناداني باسمي فلم أجب، و بعودتي إلى الوعي كانت بصلة مفقوشة على أنفي، و كف اليازرلي تسند رأسي و الماء يبلل ثيابي. أحسست بالراحة رغم الإعياء. ففي الظل أجلس، داخل العنبر أتنفس، و رغبة في النوم تداعب أجفاني. و رفعني "اليازرلي" من تحت إبطي، و أجلسني على كيس فارغ و جاء "بكازوزة" و أدناها من فمي، و لما تلاقت عيوننا لم أصدق أنه هو .. كان إنساناً آخر، لا يقتل الأطفال كما تصورته، و الكف التي رفعتني في البدء لتلقيني خارجاً، تسند رأسي، و في العينين الجاحظتين، الصفراوين قليلاً عند المحجرين، إشفاق و مودة، و لونه الخلاسي، لم يعد غريباً، و لا مخيفاً.

و غادرني صديقي عائدا إلى العمل. كان، فيما يظهر، على وفاق مع اليازرلي، و علمت، في القيلولة، أن هذا لم يشمت بي و لا به. لم يقل كلمة حول معركة الصباح، و حين سقطت على الرمال المحرقة، و رعف الدم من أنفي، تراكض الأولاد و صاحوا: مات! فهرع من في العنبر، يتقدمهم اليازرلي، و لمني عن الرمل، و احتضنني بين ذراعيه القويين، و جاء إلى العنبر و الأولاد و الرجال وراءه. توقف العمل و هو في عزه، و في حالات كهذه، و لأي سبب، كان اليازرلي يخور كثور، يسحب شرشوره و ينجرد و في وجهه الشر، فإذا عف عن الضرب، فش خلقه في الأرض، انهال عليها بشرشوره حتى يفتح فيها حفرة، و إذ ذلك يسود الصمت، و تعود حركة العمل إلى سابق عهدها.

وضعني اليازرلي في العنبر، و دلق علي جرة ماء كاملة. فرك شريان اليدين، بين السبابة و الإبهام، و قرب من أنفي بصلة فقشها بكفه الغليظة، و بمنديله مسح الدم، فأعادني، بإسعافاته، إلى الوعي. تم كل ذلك بسرعة، و بمثلها صاح بالمتحلقين: كل واحد إلى شغله! فتفرقوا، و بقي صديقي بعدهم قليلاً صامتاً و ربما خجلاً متوقعاً في

كل لحظة أن يعنف، أن يسخر منه و من "الدوري" الذي أصر على تشغيله، بيد أنه لم يفعل، و في النهاية أمر صديقي بالعودة إلى عمله فأطاع، و بقيت حيث وضعني على الكيس الفارغ، منسحقاً من التعب و الخجل تحت رحمة أنظار الصبية و العمال.

لا أدري كم بقيت ثمة. استعدت كامل وعيي تدريجياً، إنما لم أستعد إرادتي فيما يجب أن أعمل. وددت لو تركت على ما أنا عليه. بل لم أفكر فيما أنا عليه، و لا بشيء. كتلة لحمية صغيرة مهملة يتردد فيها نفس، و عينان سوداوان تحت شعر خرنوبي طويل، و عنق ناحل فوقه رأس مكور، مدبب عند القذال، يلتوي على الكتف، في جلسة استرخاء و لامبالاة و لا قدرة على الحركة. و عبر باب العنبر كانت نظراتي تطوف في الأبعاد متنقلة بوني الناقه من مرض، فيها سدور، و تحسس مفرط، حزين، لكل ما تقع عليه، تساقطت على الرمل، انغمست في البحر، رحلت إلى الحارة، تابعت الأم و الأخوات في البيت، و الوالد الغائب في طوافه المعذب في القرى، حاملاً حلواه التي جففتها الشمس و ملأها الغبار و حط عليها الذباب، ثم ارتدت النظرات من رحلتها على انكسار: ضاعت آمال العمل، و صارت العودة الآن، إلى البيت، مخزية، باعثة على المزيد من الخيبة و اليأس في نفوس من فيه.

العجيب أنني لم أفكر بقتل نفسي، و لا بالموت الذي يذهب بي إلى جوار أختي الصغيرة في السماء، و لا بالعودة إلى الحارة و البكاء على صدر الأم. لقد بلوت أحساسيس الأسى الرقيق، كغيوم الخريف، التي كثيراً ما انتابتنا عند عودة الوالد من تطوافه خائباً. كان هو نفسه يعود حزيناً، منكسراً كمن اتركب ذنباً. و في هذه الحالات كان الصمت يخيم، و يحترم كل منا شجون الآخر، و كنت أهرب، إن كان الوقت مساء، و أمشي وحيداً، متجنباً اللدات و لعبهم، مفكراً، على نحو موجع، في الوضع الذي تركت عليه أهلي في البيت، و أنام دون أن أسأل عن شيء.

و هذا الصباح، تحديت طبيعة الأشياء الكئيبة و المألوفة في أسرتنا الصابرة، و خرجت لأعمل. أحييت، ربما، أملاً ... بعثت، في أخواتي المنتظرات، شعوراً بحلول ذلك اليوم الذي أعمل فيه و أساعد الوالد واضعاً الحصاة في خابية الماء كما في حكايات الوالدة. و ها أنا، في معاناة مذلة، أضيف، بهزيمتي، خيطاً جديداً إلى "الحبل" الذي فتله لنا الدهر كما يقول والدي.

قررت ألا أعود إلى البيت. و حتى لو عدت إلى الحارة فسأنتظر الظلام، و أنسل إلى المنشية و أنام عند جذع شجرة. الأفضل أن أرحل، باحثاً عن عمل و لقمة، و حين أحصل عليهما، و يمتلئ جيبي بالنقود، أرجع، مدفوعاً بلهفة شوق لا تحد، إلى أمي، و أفرغ ما معي، حتى أخر جزء، في حضنها، و أقدم لشقيقاتي الكعك و الخميرة (5). لأنهض، إذن، و أمش. أنسرق، دون أن يدري أحد، و أبتعد عن هذا المكان. لا يهم إلى أين، و لا إلى متى .. ربما إلى هناك، حيث تتصل السماء بالأرض، ترى ما بعد ذلك الاتصال؟ تنتهي الدنيا؟ المعلمة، في المدرسة، قالت: لا، الأرض كروية، و إلى النقطة التي ننطلق منها نعود. اغتممت. خيل إلي أن بوسعي أن أقطع المسافة في يوم، و أفرغ من الدنيا، و أنا أرغب في رحيل بعيد، لا أعود فيه إلى نقطة الانطلاق .. أن أمشي، أمشي، و أخترق حاجب الاتصال، عند الأفق البعيد، و أرى ما وراءه، ذلك هو المبتغى. و ربما، كما في الحكايات، أخذتني جنية، و جعلتني ابنها، و فتحت لي الكنوز، و ربما وصلت بلدة أهلها ينتظرون، ليصنعوا من القادم الغريب أميراً .. و قد أصادف تلك السيدة التي كانت في العربة و نزلت فقبلتني و أعطتني نقوداً .. و حتى لو لم أصادفها، و لم أجد طعاماً، و لا بيتاً، فالسير، هكذا، إلى حيث لا أعلم، كان عزائي و مخرجي من الورطة.

تزحزحت عن الكيس باتجاه الباب. لا أحد ينظر إلي و لا من يهتم بأمري. انتظرت حتى ابتعد اليازرلي إلى أعماق العنبر، و تحركت

للخروج، و إذ ذاك وقع حادث عطل مشروعي في القيام برحلتي الخيالية حول الأرض.

الأكياس الخيشية التي تنقل من العنبر إلى البحر تدمغ بماركات من الأحرف اللاتينية الكبيرة. و هذه الأحرف مكتوبة و مفرغة على صفائح من التنك، و يبقى أن يضع العمل صفيحة منها، يختارها اليازرلي، وفق روقة رسمت عليها الماركات في المكتب، ثم يمرغها بالحبر فيرتسم الحرف أو الحروف على الكيس. و لحسن حظي، و لسوء حظ العامل أيضاً، فقدت إحدى الصفائح و توقف الشغل. فتش اليازرلي كل الصفائح، كل الزوايا، و لم يجدها. اهتاج، شتم، أوقف التحميل، و الصفيحة المطلوبة ضائعة. كان يمسك بالورقة و يضرب عليها: "هذه هي الماركة .. الباخرة لا تقبل البضاعة بدونها"! و اقتربت منه، محاذراً،و نظرت، فإذا الأحرف واضحة، و بينها حرف (H)، فقلت و صوتي لا يكاد يسمع: "أنا أكتبها!".

التفت إلي برأسه فقط. و من جديد رأيت في عينيه الشراسة و الازدراء، لكنه سرعان ما استدار و سألني: "تكتب و تقرأ؟" قلت خائفاً: "نعم!" فصاح بحكم العادة: "أسألك تكتب و تقرأ بالفرنجي، لا بالعربي؟" قلت: "بالفرنجي أيضاً!" و لكي أثبت ذلك، أخذت الفرشاة و رسمت على الأرض الأحرف المطلوبة. و عندما رفعت رأسي، تلقيت أول رد اعتبار في دهشة الأعين من حولي، و للحال سرى نسغ الحياة في دمي، و حملت سطل الحبر و الفرشاة برعدة امتزج فيها الارتباك بالفرح بالقوة، بكل المشاعر المتباينة أمام تحول عنيف و مفاجئ.

كان علي أن أعمل بسرعة، لتسيير العربات الواقفة بحملها، و كان اليازرلي يراقبني حتى لا أخطئ و هو يقارن بين الأحرف في الورقة و الأحرف على الأكياس. و قد اجتزت، هذه المرة، أول امتحان عملي في حياتي بنجاح. و بين ملاحظات العمل، و تعليقات

الأولاد، و كلها لصالحي، كان "الدوري" يرقى أكداس الأكياس بخفة السنجاب، تاركاً وراءه الأحرف الأولى على غير دفاتر المدرسة .. كان يكتب، الآن، بالحبر، و على الأكياس، و أمام رجال لم يعرفوا طريق المدرسة، و لا أمسكوا قلماً إلا للبري، و على مرأى من صبية، نشأوا في الأزقة و فغروا أفواههم و هم يتابعون يدي تنقش الحروف بالحبر الأسود اللماع.

و أقبلت عربة صديقي أخيراً. كنت قد صرت على رأس الكدس، قرب السقف، و من موضعه، على الأرض، هتف بي: "أنت! و ماذا تصنع هناك؟" قلت بزهو: "أكتب، كما ترى!" و قال اليازرلي: "دوريك، ابن مدرسة إذن!؟ .. لماذا لم تخبرني من الصباح!". فابتسم صديقي و عاد يرنو إلي. كان في صفي، و قادراً أن يكتب مثلي، و لو بإتقان و خفة أقل، غير أنه رفض المباهاة، و لم يشأ أن يقلل من أهمية ما أعمل. اعتبر ذلك نصراً له، ربما، و ربما كان قلبه الطفلي لا يعرف الحسد، و غادرني راضياً، سعيداً دون أن يلاحظ وا أسفاه، أنني كنت أمارس شعوراً غامراً، زائداً عن الحد، بالتفوق على الأتراب، و أنني، في هذا الزهو الخادع، أستعيد ثقتي بنفسي، و أنتقم من فشلي وضعفي حيال ما لحقني من عار.

و من أعماق الميناء جاء صفير باخرة الشحن. الحمالون و البحارة يعرفون شارات الصفير و يترجمونها، بل يعرفون الباخرة التي أطلقتها. و راح اليازرلي يستحثنا قائلاً: "الباخرة تطلب البضاعة"! و ألقى، بحركة حمال قديم و معتد سترته، و تناول الشرشور و شكه في كيس رفعه على ظهره و ألقاه على العربة و انثنى على الذي يليه، و هو يصرخ: "أين همتكم يا شباب؟". كان كيسه يأت، عرضانياً، في موضعه من جسر العربة، فلا يحتاج إلى تسويته أو همزه بالشرشور، و هذه، بعد القدرة على رفع الأكياس الكبيرة، من زنة المئة كيلو فما فوق، علامة المهارة. و قال حمال اشتهر برفع "البالات" من زنة المئتي كيلو و الصعود بها على اللوح الخشبي:

- لا تتمرجل يا يازرلي .. نحن نعمل بأكثر من طاقتنا. عندك رجال!
- الرجال في العنابر الأخرى .. أنتم عجائز .. و لا أقول نساء!
- لو كنت ابن الوالد لأنصفت!
توقف اليازرلي و حدجه بنظرة ثم بصق:
- صدقت .. أنا ابن ... ،لأني أشغل معي ابن ... مثلك؟
فتدخل حمال، من الطرف الآخر:
- إذا كنا لا نعجبك اصرفنا .. ألف من يستجير.
- طبعاً .. لأن الدنيا صيف .. في الشتاء تتغير اللهجة، تقبلون النعل ..
- تقبيل النعل -قال حمال أعور- ليس من شيمنا .. أنت تعرف رجالك لولاهم كنت شحاذا ..
فصرخ به اليازرلي:
- اخرس و إلا فقأت عينك السليمة، يا أعور الدجال.
سحب الأعور شرشوره و انحدر عن الأكياس:
- إذا لم تكن امرأة تفعل ..
- و أكون امرأة إن لم أفعل ..

ارتبكت، لشدة اضطرابي، فدلقت بعضاً من الحبر على الكيس. لم أصدق أن في الدنيا أناساً، يتشاتمون و يتضاربون بمثل هذه السهولة، و لغير ما سبب. كنت جهل ما تنطوي عليه الكلمات من تعريض، و ما في الصدور من رغبة مجردة للعراك. و في دهش و رعب تابعت حركة الشراشير التي أشرعت كالأسنة، و لاحظت أن اليازرلي جحظت عيناه أكثر، و الأعور تزججت عينه السليمة فهي لا تطرف. و من على الأكياس انحدر الرجال، و احتضنوا المتخاصمين و أبعدوهما، و رضي اليازرلي بالمداخلة فصرخ: كفى! عودوا إلى الشغل و في المساء نتحاسب ..

و قفز الحمال، رافع البالات، و تربع على الأرض، صائحاً و هو يخبط لبادته فتثير سحابة من غبار:

- أما أنا فلن أرجع .. سأسكر هذه الليلة!
- أنت حر –قال اليازرلي- بعد الشغل افعل ما تشاء ..
- ستعطيني إذن على الحساب ..
- فشرت ..
- تدينني حتى أقبض ..
- فشرت أيضاً ..
- و ربك –أقسم- لن أنهض حتى أعرف مصيري .. أنا ضيفك هذه الليلة يا يازرلي.
- هذا حباً و كرامةً .. تعال مساءً إلى الخمارة .. و اشرب حتى تنطفئ.
- لا شغل لي في الخمارات.
و تعالت أصوات:
- يريد "تعيينه [6]" ناشفاً ..
- نعم .. أريده ناشفاً ..
- هذا يتوقف على الشغل ..
- كلمة شرف يا يازرلي!
- هذه كلمة اليازرلي .. هيا .. عوضوني ما فات .. شيلوني .. [7] ألا تسمعون صفير البابور؟

نهض الذي يتربع تاركاً لبادته على الأرض. زغرد و دار على نفسه كالبهلوان، و أزاح اليازرلي من طريقه و باعد بين رجليه و تناول الكيس .. و على الفور علت القهقهات ... و فيما أنا أعمل راقبته لأعرف سبب الضحك، فإذا هو يعر ككلب ينهش الأكياس، فإذا بلغها رفع الكيس بين ذراعيه، مسنداً جانبه إلى صدره، و سار به فألقاه في العربة. فصاح به اليازرلي مشجعاً:
- أحسنت .. آه يا حطاط للحايم عشاه [8].
احتج أحدهم:
- و نحن لا نقصر!
- و أنتم لا تقصرون. (اعترف لهم).

- و أنت تتشدد معنا عند الانصراف ..
- لأنكم طماعون .. انظروا .. التفت فرأيت حمالاً أشيب، له صوت حاد و ضحكة مثل قوقأة الدجاجة يعود من الخارج. لم أفهم شيئاً. و عاد الحمالون إلى الضحك، و قال الأعور:
- قضاها!.
- نعم .. قضيت حاجة .. مثل الناس.
فصرخ اليازرلي:
- شيبة ضالة .. أين خبأت الحنطة؟
- و حلف الأشيب، فتركه اليازرلي و مضى إلى الخارج، و بعد لحظة عاد و بيده كوفية مزمومة على نصف تنكة من القمح، فكها و أفرغ ما فيها على الكومة المتجمعة من الأكياس التي تتمزق عند تحميل العربات.

عند الظهر كنت قد تأصلت في "وظيفتي". و بقيادة صديقي ذهبنا إلى البحر و غطسنا. و أطعمته بعضاً من الحمص فقبله. و كذلك أكلت من زوادته. و عدت مرحاً إلى عملي. لقد أحببت العنبر و رجاله و شتائمهم و معاركهم و الروائح النتنة. و فيما أنا أرسم الحروف شرعت أتصور طريق العودة إلى البيت، و الكلمات التي سأقصها على الوالدة و الأخوات .. كدر واحد نغص فرحتي: أن أرجع فلا أجد الوالد في البيت.

في المساء، بعد العمل، أصر اليازرلي على تفتيش الرجال. كانوا قد ألقوا ستراتهم على أكتافهم استعداداً للخروج، فقال اليازرلي:
- الشوب يحرق ذنب العصفور و أنتم في الجاكيتات .. على "فرنكا"[9]! اقتربوا مني.
كانت السترات ذات جيوب كبيرة، خامية، تحت البطانات. و ظهر ما حزر اليازرلي، أنها ملأى بالقمح و العدس و صنوف الحبوب. و كانت للسراويل جيوبها أيضاً، فأمرهم:
- افرغوا ما معكم على الأرض..
فصاح الأشيب:

- شفت؟ عدت إلى التشدد .. ليس معي إلا حفنة حنطة .. "سليقة" [10] للصغار، من الكناسة [11]!!
- الحفنة، و الحفنتان، و الثلاث، أتركها .. أما الأكثر يعود .. إذا نقص الوزن انخرب بيتي، افرغوا جيوبكم.

و طفقوا يقلبون جيوبهم .. ثم اقتربوا فتحراهم واحداً واحداً، و لاحظت أنه يتحرى بعضهم بصورة شكلية، و يتسامح بالكميات الصغيرة، و لما جاء دور الأشيب انفجر الضحك. كان يمشي كمن به فتاق .. ففي إلية شرواله رطل من القمح، و ما إن مد "اليازرلي" يده إليها حتى صاح الأشيب:
- آه يا فتاقي! قتلتني يا ابن الكلب!

و ركض باتجاه الباب و خرج، و الحمالون وراءه، و ضحكت، لأول مرة، ضحكاً من القلب في ذلك اليوم. حتى إذا هممت بالمسير، استوقفني اليازرلي:
- لا تذهب أنت .. لي معك شغل انتظر قليلاً.

قالها و صرف الأولاد، بمن فيهم صديقي، و غاب هو في أعماق العنبر، يتفقد الأبواب و البضائع، و أنا أعجب لسهره و أمانته و قسوته و طيبته في آن . فلما فرغ من ذلك، أخذني إلى مشارف النور، عند حافة الباب، و أخرج دفتراً صغيراً من عبه و أمرني:
- أكتب ما أقول لك: نفدة لجواد بتاريخه .. و تحتها 5 كيلوا عدس. نفدة بتاريخه للأقرع .. و تحتها 10 كيلو حنطة .. نفدة ..
فلما كتبت له ما طلب، أعاد الدفتر إلى عبه و أعطاني ثلاثة قروش مع هذه الملاحظة:
- هذا خارج الحساب .. لا تقل شيئاً لأحد . فهمت؟ و عبس و صرفني.

كانت يداي ملطختين بالحبر، و خشية ألا يكون ظاهراً عليهما، لطختهما أكثر قبل الانصراف، و دخلت الحارة و أنا مرسل الذراعين على الجانبين، مفتوح الراحتين، ليراهما الناس. و في البيت كانت البشرى: عاد الوالد! و عانقتني الوالدة و بكت فرحاً، و بعد أن قصصت عليها كل شيء، ما عدا حكاية "النفدات"، أعطيتها القروش الثلاثة، فركعت أمام أيقونة العذراء، و نذرت لها نذراً، و خرجت فطافت بيوت الجيران قائلة:
- سمعتم؟ ابني توظف .. كاتب، و العقبى لأولادكم.

. . .

جرى في نهاية الأسبوع الأول، دفع الحساب للرجال و الأولاد من قبل موظف أرسله التاجر صاحب العنبر، و استمهلني اليازرلي، كعادته كل مساء، و أمرني بعد إيضاح الأسعار لكل صنف:
- قرش لي النفدات .. كل اسم على حدة!
فعلت. فهز رأسه و شتم، قال:
- جمعاً يكون!
جمعت له النفدات و أثمانها. فعاد يهز رأسه و يشتم:
- كانوا يسرقونني، أولاد الكلب، أنا الذي لا أكتب و لا أقرأ .. و الآن بدأ الشغل المضبوط، صار عندي كاتب و الحمد لله، تعال غداً إلى المقهي سأكون بانتظارك.

ذهبت، فمنحني بعض النقود مكافأة .. و في الأيام التالية، سألني بعد تسجيل النفدات الجديدة:
- لماذا لا تلبس سترة مثل الآخرين؟ البس سترة، و قل لأمك أن تكبر جيوبها .. ستأتي أيام الشتاء، و قليل من "السليقة" ضروري.

و لتهوين الأمر علي، و دفعاً لسوء الظن به، أشار إلى كومة من القمح عند الزاوية:

- الذي يقطف العسل يلحس أصابعه .. نحن هنا لا نلحس أصابعنا .. أنا لا أسمح بذلك .. أما هذه فكناسة .. لا بد من تكنيس الأرض .. من خيرها .. لا فضل لأحد.

لم آبه لكلامه. تارة يتمزق كيس، و طوراً يمزقونه عمداً، و نفداته لا أراها .. أسجلها و لا أراها .. لكني أشك أن تكون من الكناسة .. الأرجح من "العسل". و لم تخطر لي خطيئة لحس الأصابع التي تقطف العسل، و لو خطرت و قلتها للآخرين لضحكوا علي، و ربما ضربوني ..

على أني عثرت، و أنا أنقب في العنبر، على صناديق فيها كراريس من طباعة محمد البابلي الحلبي و أولاده في مصر، أو في حلب، كان الاسم موجوداً عليها. و كان أحدها مخلوع الغطاء، فأخرجت كراساً عليه رسوم و قرأت أول قصة من "ألف ليلة و ليلة" ثم رحت، كلما سنحت الفرصة، أحوم حول الصناديق لـ "ألحس أصابعي" أنا أيضاً .. و رآني اليازرلي فأقبل نحوي و هو يبتسم:
- خذ منها ما تشاء .. هذه "الكناسة" للفيران .. لا يهتم بها أحد.

و تأكدت، طوال عملي معه، أن أحداً لا يهتم بهذه "الكناسة" سوى كاتب النفدات، و جرذان العنبر.
بعد ذلك، و بصورة مفاجئة دخل اليازرلي السجن، حزنت لأجله جداً، و أسف الحمالون و تحدثوا عنه. كانوا، حياله، فريقين. و لم أفهم ما وقع تماماً إلا من صديقي:
- اليازرلي هجم على جارته وهي عارية كما خلقها الله.
و طلباً للتفصيلات المثيرة سألته:
- بدون أي قطعة ثياب!؟
- أقول لك عارية .. مثلما جاءت من بطن أمها ..
- و كيف رآها عارية؟

- كانت تتحمم [12] .. جالسة في "لقن [13]" كبير، و صدرها، و نهداها، و ظهرها الأبيض .. أنت لم تر في عمرك امرأة عارية؟ (و فرك كفيه) آه لو أرى امرأة عارية مثله!
- و ماذا تفعل بها، عيب!
- عيب (و دفعني في صدري بلطف) أنت صغير بعد .. اذهب و اركع أمام العذراء.

في تلك الليلة لم أركع أمام العذراء. أردت أن أثبت أنني كبير، و نمت و أنا أفكر بالمرأة العارية، الجالسة في "اللقن"، بيضاء البشرة، مكشوفة الكتفين و الصدر و الظهر .. و قد عذرت اليازرلي الذي رآها ... لكنني عجبت كيف رآها، و كيف ملك الجرأة على اقتحام البيت، و تساءلت: لماذا خاطر و دخل السجن؟ من أجل امرأة!؟ و ماذا فعل بعد أن دخل عليها؟

على أن سجن اليازرلي لم يطل. خرج بكفالة التاجر. و استأنف عمله في العنبر، و استأنفت أنا تسجيل "النفدات". عادت صيحاته و مشاجراته مع العمال و فيها، أحياناً، بعض التلميحات التي كانت تستثيره فينقلب مجنوناً لشدة الغضب.

لقد وجدت فيه "إنساناً لا يخاف" و أجببته من أجل ذلك .. و يوم الأحد ذهبت إليه في البيت، فرأيت عنده "حمال البالات" و هما يشربان العرق. كان الحمال جالساً أمامه يصغي و يضرب رأسه طرباً، و اليازرلي يغني متوعداً الذين شهدوا عليه، و الذين تقولوا بحقه زوراً. كان يضع كفيه على أذنيه، و ينحني على صاحبه و يصرخ:

و السبع لما و قع   النذل قال له: العمى
و اللي يشهد الزور   يبلاه بكاسات العمى!

. . .

ثم حدثت الهجرة من اللواء و افترقنا .. عشرون عاماً لم أره. لم أسمع به .. و ذات أصيل، فيما أنا مع بعض الأصدقاء، في أحد شوارع دمشق، أبصرته عند بوابة إحدى المدارس. كان الهرم و الفقر باديين عليه، و أمامه "طبلية" يبيع عليها السكاكر للأولاد، فاقتربت منه و حييته، و عرفته بنفسي فسلم علي، و قال له أحد أصدقائي، و كان يعلم بالقصة:

- حنا اليوم معروف: كاتب!

فابتسم على شيء من أسى و ذكرى، و أطرق و قال:

- نعم .. أعرفه .. بدأ الكتابة عندي! على الأكياس!!

1971

(1) الزلابية المبرومة.
(2) المشلح: قاطع الطريق.
(3) التفويل: التشاؤم عند العامة، بعكس معناها اللغوي.
(4) الشرشور: حديدة معقوفة ذات مقبض خشبي يغرزها الحمالون في الأكياس لرفعها.
(5) سكاكر هشة رخيصة للقرويين.
(6) الحصة من المؤونة أو الطعام.
(7) شيلوني، من شال، أي ارتفع، و المعنى ارفعوني في زحمة الشغل.
(8) يقصد به الزير سالم، الذي أمسك السبع و أدخله الإسطبل و ربطه موضع حماره الذي أكله.
(9) على فرنكا، أي على الفرنجي، و المقصود الزي الرسمي!
(10) ما يسلق من القمح في الأعياد، أو لتحويله إلى برغل.
(11) ما يتناثر من حب على أرض العنبر، و يكنس!
(12) تستحم.
(13) "اللقن": الطشت الكبير المجوف، للغسيل و الاغتسال.

بطاقة توصية

كان قد مضى على تسريحه أربعون يوماً ..

و لم يكن قد عثر على عمل برغم مساعيه و تطوافه، و لم تصدق وعود الواعدين برغم أن بعضها جدي، و أن نوايا أصحابها ليست سيئة تماماً.

كان عليه، كل مساء، أن يقول لنفسه: "غداً". و حين يصير الغد أمساً، يظل عليه أن يقول لنفسه: "غداً". و ينهض باكراً ليبحث عن عمل جديد و ليمني نفسه بـ "غد" جديد.

نوري بن فنور، الساكن في حي الأشرفية في بيروت، و العامل المياوم المسرح من مصلحة الهاتف الآلي، لم يترك باباً إلا طرقه. كان يغادر بيته قبل أن يستيقظ أولاده لكي يتجنب نظراتهم المتسائلة. فهم يلاحظون خيبته كل مساء، و رجاءه كل صباح، و ينطوون على نفس الخيبة و نفس الرجاء.

و يبدو أنهم ألفوا هذه الحال في أوقات البطالة .. و انطبعت فقي أذهانهم لوحة رضوان الشهال "في صبيحة العيد" المعلقة على الجدار. كانت تلك هي اللوحة الوحيدة في البيت، و لم توضع ثمة للزينة، فالجدران العارية لا يفكر أحد بتزيينها بلوحة كهذه، و إنما وضعها نوري كما توضع الحجة في رقبة الفرس .. كانت باختصار حجة البيت، و فيها يظهر عامل يجلس على العتبة في صبيحة عيد، واضعاً كفه على خده، و من حوله أولاده ينظرون إليه، و يعيشون، مثله، غربة حقيقية.

الفارق الوحيد أن والدهم لم يكن يضع يده على خده .. أبداً لم يضع يده على خده، و كانت والدتهم هي التي تفعل ذلك، و هي التي تجلس على العتب، و من حولها صغارها، بانتظار الوالد الذي ذهب يبحث عن عمل.

و كانت البنت الكبيرة، المصابة بفقر الدم على الأرجح، تتجنب والدها في أيام بطالته .. لا تريد، بشعور غامض، أن تكون شاهداً على قهره في صراعه مع الزمن .. أما الأم فلا تقول شيئاً، لأنها تعتبر الأشياء كذلك أباً عن جد، بينما الجدة تلوم ابنها لأنه "ينطح الصخر" و الأيام تعزز رأيها، و قد جاء تسريحه، بعد إضراب فاشل أخيراً، بمثابة الدليل القاطع على أن نوري "ينطح الصخر".

و نوري لا يصغي إلى أمه، فهو يجد الأمور طبيعية جداً: الإضراب الفاشل يعقبه تسريح انتقامي. و قد وفر على نفسه التعب فلم يتعلل بالعودة إلى العمل، بل وكّل محامياً للحصول على التعويض، و وقع تعهداً بدفع خمسة و عشرين بالمئة أتعاباً، إضافة إلى حسميات الضرائب و الرسوم و مصاريف المحكمة، و قد أدرك أن التعويض –حتى إذا حصل عليه بعد شهور – لن يصل إلى يده إلا حسكاً، و هو لا يفي إلا بجزء من ديونه، و كل قيمته، في الوقت الحاضر، أنه ضمانة للدائنين الذين يعرفون ذلك، و قد ارتضوا، إشفاقاً أو أملاً، بالاستمرار في تسليم العائلة أقل كمية من الخبز، مع رفض الطلبات الأخرى، أو القبول بالضروري جداً منها، و حتى الضروري صار في أمره خلاف: فالتبغ اعتبره حانوتي من الكماليات، بينما تساهل حانوتي آخر فلم يخرجه نهائياً من قائمة الضروريات .. و صار على نوري أن يدخن وفقاً لاجتهادات الدائنين، و قد يمر يوم أو يومان فلا يدخن أبداً .. أما النقود فلا أثر لها، و هو مضطر، شأنه أيام البطالة، أن يذهب ماشياً إلى البرج.

و هاهو يمشي .. نهض باكراً، و سار مجداً .. لم ينتظر قهوة الصباح فهذه أيضاً صارت من الكماليات، و التدخين مع القهوة صباحاً، يعادل وجبة كاملة بالنسبة لمدمن مثله، و لكن القهوة غير موجودة، و كذلك الدخان، و الأمل، و هو كل رأسماله، في بطاقة التوصية التي يحملها.

شقيق زوجته هو الذي جاءه ببطاقة التوصية .. رفضها بادئ الأمر، و تحت الإلحاح و ضغط الحاجة، وضعها في جيبه و قصد السراي منتظراً مجيء الوزير .. مكث من الصباح حتى انتهاء الدوام و لم يحضر .. قيل له أنه في البرلمان. و في اليوم التالي ذهب أيضاً و انتظر، و وجد غيره ينتظر. المراجعون كثيرون و بطاقات التوصية كثيرة .. حبر على ورق، و لكن لا بد منها .. لا بد من الواسطة، و الوسطاء كثيرون، ففي كل منطقة وجهاء و أدعياء و سماسرة، و كل هؤلاء يعطون بطاقات توصية باستمرار، يعطونها ديناً على حساب الانتخابات المقبلة، أو ببدل عيني من ثمر الأرض أو الجسد، و لقاء المال، فالأمر في نهاية المساومة، يتوقف على العمل المطلوب و العقدة المراد حلها .. و كنت البطاقة التي يحملها نوري مسحوبة على الانتخابات القادمة، و لأن هذه الانتخابات بعيدة، فاحتمال نجاح التوصية بعيد، و هذا ما يعرفه، و قد قاله لزوجه التي أصرت على أن أخاها من "زلم" الوزير، و أنه يعتمد عليه في المنطقة، و يكفي أن يقرأ ما في البطاقة حتى يتذكره، فهو من أكبر الوجهاء هناك، و كلمته لا تصير اثنتين في السراي.

مطر ربيعي يتساقط رذاذاً .. غيمة و تزول، بل أن بقاءها مطلوب لتلوين لوحة الربيع .. و الجهمة التي تنشرها شحذ جديد للشوق إلى الصحو و الشمس، و نوري، فيما مضى كان يحب هذا الرذاذ، و يسعد به منذ طفولته، و لم يضق بالرذاذ اليوم إلا لأنه بلل ثيابه المضطر إلى البقاء فيها حتى العودة إلى البيت.

الماشي على قدميه، من الأشرفية إلى البرج، لا يسلك طريق السيارات و لا الترام كلها ... يختصرها بنزول بعض الأدراج الحجرية. و كذلك فعل نوري، بل أنه دخل بعض الأزقة زيادة في اختصار الطريق، و مع ذلك كله سار وقتاً طويلاً و تبلل بشكل ظاهر، و المنديل الذي وقى به رأسه تنقع تماماً، فعصره و مسح به وجهه و يديه، ثم عصره و وضعه في جيبه، و دخل السراي بين جهمتين: النفس و الجو.

و كالبائعين و الشحاذين الذين تصبح لهم، بحكم المداومة و الخبرة، مواقف معلومة، تصبح للمراجعين المدمنين مواقف معروفة عند أبواب المكاتب و أدراج السراي .. أكثرهم حظاً – و ربما أوفرهم قوة – من له موقف أدنى إلى الباب .. و احتلال المواقف رهن بالحضور المبكر، و كذلك بالمحافظة عليها.

و كالمسافرين في طريق بعيد، يتعارف المراجعون و يتبادلون الأخبار، و يتطارحون الشكوى، و يشتمون الدنيا، و قد يشتمون الشخص الذي يراجعونه ..

و في طريقه إلى السراي، اعتزم نوري أن يرابط أمام باب الوزير، فلما وصل وجد مراجعين آخرين قد رابطو قبله، و عليه أن يقف بعيداً كيلا يسد الطريق و ينتهره الحجّاب. و بمضي الوقت أخذ عدد حملة التوصيات يزداد، حتى تشكل جمهور منهم. و قد وقفوا أول الأمر وقفة طبيعية، يتحادثون أو يدخنون، ثم تعبوا من الوقوف فاستندوا إلى الأعمدة و الجدران، ثم قرفصوا عند أقدامها، و ظل بعضهم يذهب و يجيء ..

و بحلول الظهر ازداد توتر الجميع. فإذا لم يأت الوزير اليوم، وجب عليهم أن يعودوا غداً، بنفس التفكير و نفس القلق. لقد كان الأمل، في الصباح، يعمر قلوبهم، و مع تقدم النهار غاض، و دب اليأس و تصاعد.

و فجأة حدثت حركة في الرواق. فتح باب المكتب فهرع إليه المنتظرون، و تدافعوا نحو الحاجب، و استعد كل منهم، شاهراً كتاب التوصية، أو متحسساً له في جيبه، و انجلى الزحام عن لا شيء ... أعطى الحاجب شخصاً معاملته و أغلق الباب، طالباً من المزدحمين أن ينتظروا !

قال رجل هرم مغضباً:
- إلى متى الانتظار؟ هذا يومي العاشر .. لو كنت من بيروت لهان الأمر، أنا من الجبل، و لا مال عندي .. بعت ما فوقي و تحتي و القضية في موضعها، أحضر من الصباح و أنصرف بعد الدوام، و النتيجة فالصو.
أجاب كهل آخر:
- صاحب الحاجة عبد يا ابني.
- و لكني دفعت!
- الدفع وحده لا يكفي .. لا بد من طولة البال.
- و من أين تأكل عائلتي؟
- الله لا يقطع بها.
فلوى الرجل عنقه و قال كمن يخاطب نفسه:
- أمنت بالله .. و لكن عائلتي جائعة، و حذائي تقطع .. يا هو لمن أشتكي؟.
ران صمت على الحاضرين فأعقبه هذا السؤال:
- و ماذا قال لك الوزير؟
- و من رأى الوزير؟ أرابط من الصباح إلى المساء، ولا أدري متى يأتي و متى يذهب.
قال واحد من المراجعين:
- مكاتب الوزراء لها أبواب خلفية.
فعلق مراجع مزمن:
- و أبواب سحرية أيضاً .. اسألوني أنا .. إذا انتظرت على الباب الخلفي قالوا خرج من الباب الأمامي، و إذا انتظرت على الباب

الأمامي قالوا خرج من الباب الخلفي .. يلعبون بي مثل الطابة .. مصيبة!
- الوزير موجود اليوم .. لا تقطعوا الأمل.
- رؤية الوزير لا تحمل المن و السلوى .. تعطيه، بعد طول الانتظار، البطاقة، فيقول لك: "تعال غداً" و تأتي في اليوم التالي فلا تجده، و تنتظر من جديد .. تقطع الممشى مئات المرات، تجلس على الدرج، تقف حتى تزهق روحك، تتعب ساقاك فترتكز عليهما بالتناوب، تفقد صبرك و قواك حتى تكاد تنهار، و بعد هذا كله، و إذا استطعت أن تكلمه، يقول لك: "اذهب إلى فلان" و تذهب إلى فلان فيحيلك إلى علان، و علان إلى علان، و تيأس فتترك القضية، أو تعود لرؤيته من جديد .. هذه ثالث مرة أراه، و ظني أنها ليست الأخيرة .. تفو على هذا الزمن ... صاحب الحاجة عبد من حق!

انكمش نوري في مكانه دون أن يفتح فمه .. استشعر إهانة بالغة و هو يسمع عبارة "صاحب الحاجة عبد" .. إنه ليس حراً و لا فائدة في الإنكار، و لا في التساؤل كيف و متى استعبد . هو يعرف السبب، و من أجله أضرب و سرح، و من أجله يجب أن ينظم إضراب آخر، أو يكافح بطريقة أخرى ..

و فيما نوري يفكر، حدث مد و جزر بين المراجعين، و علت الضجة، و تراكض الناس، و تسمر هو في مكانه .. لم يستطع مجاراة الآخرين في حركاتهم و توسلاتهم التي تتنافى مع الشكاوي و الشتائم التي أرسلوها منذ قليل. تحول كل ما فيهم إلى نداءات استعطاف و كلمات نفاق و تذلل، و ارتفعت أيديهم بالرسائل و بطاقات التوصية و المعاملات، فتشكل ما يشبه الأجمة من الورق الأبيض فوق الرؤوس.

كان الوزير المستعجل قد خرج من مكتبه، يتقدمه الشرطي المرافق و يلحق به الحاجب، و كان، و هو يسير، يكلم هذا و يجيب على

تملـق ذاك، و يعطـي وعـوداً علـى الجـانبين، و يعطيهـا إلـى وراء أيضاً، و الشرطي المرافق يفتح له الطريق، و الحاجب يلفت نظره إلــى بعــض المــراجعين، و الموكــب يتقــدم نحــو درج الــسراي الخـارجي، و أجمـة الأوراق البيـضاء تتحـرك، و التـدافع يـشتد ... حتى إذا بدأ الوزير يهب الدرج، و لم يبق من أمل في الوصول إليه إلا ببلــوغ ســيارته و المرابطــة حولهــا، بــادر بعــضهم إلــى قفــز الـدرجات، و انتهـوا إلـى الـسيارة فتحلقـوا حولهـا، و فـتح الـسائق الباب، فاندفع الوزير إلى جوف السيارة و انزوى في طـرف المقعد الخلفي، فامتدت الرؤوس و الأيـدي مـن النوافذ، و عـاد الـسائق إلـى مكانــه، و راح الـشرطي المرافـق يـستحثه علـى الانطـلاق، و دار المحــرك و المراجعــون يحيطــون بالــسيارة، و الــوزير يــرد مــن الـداخل: "غـداً .. طيـب .. سـنرى .. فهمـت." و الحاجـب ينتهـر المتجمعين، و المرافق يأمر السائق: "امش! خلصنا!".

و مشى السائق بصعوبة .. كان عليـه أن يشق طريقه ين الأجسام، و مضت السيارة و بعضهم لا يـزال معلقاً بهـا، و أسـرعت فـركض المتعلقون بالنوافذ، ثم تراخت الأيدي، و ارتد المراجعون واحداً إثر آخر، و تفرق الجمع، فسار كل في الاتجاه الذي هو موليه.

كانت بطاقة التوصية لا تزال في يد نـوري .. هو أيضاً تحرك مع الموكب، من باب المكتب إلى باب السيارة ... تحرك صامتاً، كئيباً، كأنه يخوض في مستنقع من القرف و الكراهيـة، و قد قرر، و هو ينفصل عن الموكب الخائـب، ألا يعود فـي اليوم التـالي، و لا فـي الذي بعده.

و نظـر فـي بطاقـة التوصـية و الـسيارة تبتعد، و رأى الوجـوه و قد غــاض أملهــا و عاودتهــا تكــشيرة الــسخط، و تــذكر قولــة القائــل: "صـاحب الحاجـة عبـد". و أبـصر عبيـد الحاجـة و هـم يتفرقـون و يدبون كالنمل على أرصفة الشوارع، فامتلأ بالغضب عليهم و علـى نفسه و على بطاقة التوصية ..

و اتجه بهدوء نحو صندوق القمامة ..

1969

علبـــــة التبغ

حنــــا مينه

عندما انتهى إبراهيم من رش مادة الـ ددت حول الحصيرة التي سينام عليها، راقب بعناية ذلك الخط المستطيل من المادة المبيدة للحشرات الذي سيبخ به مرقده، و إذ لاحظ فجوة فيه عمد إلى سدها، ثم عمد، احتياطياً، إلى تكثيف ذلك الحاجز فرش المادة المبيدة مرة ثانية. و بعد ذلك خلع ثيابه، و أطفأ المصباح، و تخطى الحاجز فاستلقى على الحصيرة وسط ظلمة الغرفة التي خفت تدريجياً، و قال في نفسه راضياً عن فعلته: "حسناً! ظني أن البق اللعين لن يستطيع اختراق الحاجز الذي أقمته من حولي".

كان الليل في أوله ما يزال، لكنه مل القعود فآثر النوم، و مع أن هذا لا يأتي بسهولة فإنه راح يحاوره بصبر ليستريح من شعور مبهظ بالوحدة في هذا الكوخ الخشبي الكئيب على سطح الطابق الثالث في حي الزيتونة ببيروت.

لقد فرض عليه أن يتفهم الضرورة التي ألجأته إلى السكن هنا و أن يتعزى، و كان العزاء ضرباً من النسيان الصعب، فتعلم أن يمارسه بنجاح. أن عليه أن يتقبل الواقع بطريقة لا تكرسه بل تحتمله بغية تغييره، و قد فهم ذلك و اتخذه سلوكاً و على أساسه أقام في هذا الكوخ لصاحبته السدة زكية مالكة البيت بطوابقه الثلاثة: الأول و فيه بعض الحوانيت، يعمل ابنها حلاقاً في أحدها، و الطابق الثاني تؤجره غرفاً مفروشة لطلاب الجامعة، و الثالث تسكنه مع زوجها و ابنها الحلاق و ابنتيها العانس و ابنتها الأخرى المتزوجة.

إن السيدة زكية تمارس كل شعور السيدة صاحبة الملك،و فوقه الإحساس بأن البيت الذي ورثت طابقه الأرضي عن أهلها قد تطلب منها زهرة عمرها حتى استطاعت بناء طابقيه لآخرين. لكن الذي يطأمن من حدة شعورها بالملكية هو وضعها الأقرب إلى

العوز الدائم، و اضطرارها إلى الإفادة من كل زاوية في بيتها، و كذلك اضطرارها إلى الشجار، أو عدم التلاؤم على الأقل، مع كل ساكنيه، إما الاختلاف على الأجر، أو ضيقاً بالذين لا يعملون مثل زوجها، أو الذين عليها أن تحتملهم مثل صهرها "عديم الوجدان".

و حين جاءها إبراهيم يطلب غرفة للإيجار، أعلنته أن ليس لديها غرف فارغة في الوقت الحاضر، مع الوعد بأن غرفة ستخلى بعد أيام، يمكنه أن يسكن فيها، إذا اتفقا على أجر.

قال إبراهيم:
- لكنني لا أستطيع الانتظار، فليس لي مكان أبيت فيه.
- يمكنك أن تنزل في أحد الفنادق لبضعة أيام.
- لم أجد غرفة في فندق مناسب.
- ستجد إذا بحثت أكثر .. هناك فنادق رخيصة حول البرج.
- لا تطيب لي السكنى في مثل هذه الفنادق .. أعصابي لا تحتمل الضجيج ..
- و الفنادق الأخرى؟
- أسعارها لا تناسبني.
قالت السيدة زكية في نبرة أسف:
- لا حيلة في اليد .. إذا لم تنتظر بضعة أيام فلن تحصل غرفة عندي .. مع أنني لا أرفض، بل قل أنني أرغب في تأجيرك إحدى غرفي.

ساد الصمت دقيقة بينما، بدا خلالها كل منهما يفكر في حل، و كل منهما يخفي الحقيقة عن الآخر.

هو لا يستطيع النزول في الفنادق، لأنهم يطلبون فيها هويته، و لأسباب خاصة به، لا يريد أن تكون إقامته معروفة من رجال الأمن، و ليس ذلك لأنه مطلوب في لبنان، بل لأنه قد يطلب من قبل سورية، فهو صحفي أغلق حسني الزعيم، غداة انقلابه عام

1949، الصحيفة التي يعمل فيها، و سجن صاحبها و لاحق محرريها، و هو واحد منهم.

و هي، السيدة زكية، تميل إلى تأجيره لأنه ليس من فئة الطلاب. إن لديها ابنة للزواج، و خاطبها قد يكون بين المستأجرين، و لأمر ما توسمت في إبراهيم خيراً، و رغبت في أن يسكن لديها لو توفرت الغرفة.

قال إبراهيم في شيء من ضراعة زادت في آمال السيدة زكية و أطمعتها:
- ألا يمكن أن أدبر نفسي عندك خلال أيام ريثما تفرغ الغرفة؟
- كيف؟
أنام في الصالون.
- لا يوجد سرير في الصالون .. و المستأجرون لا يقبلون فوق ذلك.
طراوة لهجة السيدة شجعت على الإلحاح:
- الدنيا صيف .. و يمكنني النوم كيفما تيسر ..
- آسفة .. ليس في البيت مكان غير مشغول سوى السطح .. هناك غرفة غسيل.
- غرفة غسيل؟!

و ضحك للمفارقة، بينما السيدة تمسح كفاً بكف، مؤكدة أن هذا كل ما في وسعها، لكن إبراهيم سرعان ما أعطى انطباعاً بأن العرض – على عدم معقوليته – يمكن أن يصير معقولاً أمام الرغبة المشتركة، فالتقطت السيدة ذلك لتبتسم مشجعة و هي تقول:
- عدم المؤاخذة .. الغرفة بساكنها .. قد لا تكون صالحة، و لكنها ليست سيئة .. كنت أفكر منذ مدة بتجهيزها، ثم صرفت النظر .. فإذا كنت مضطراً يمكن أن تقيم فيها بضعة أيام .. بضعة أيام فقط ..

قال إبراهيم:
- أنا مضطر فعلاً .. و لكن ليس إلى درجة الإقامة في غرفة غسيل ..
و قال في نفسه: "قد تلائمني هذه الغرفة أكثر من سواها، فهي معزولة و مستقلة على السطح، و ستجنبني مخالطة الآخرين أو الدخول في أحاديث معهم .. ثم أن كرائها زهيد و لا شك، و هذا مهم في مثل وضعي".
قالت السيدة:
- فكر في الموضوع .. راحتك أولاً،
قال إبراهيم:
- في غرفة كهذه لا مجال للكلام على الراحة .. غير أن الضرورة تجعلني أقبل أن أراها، خاصة أن غرفة أخرى ستخلى بعد أيام كما تقولين ..

صعدا إلى السطح .. و على طرف منه، من جهة البحر، كانت غرفة خشبية مستطيلة تقبع في رثاثة بالغة، فقالت السيدة و هي تشير إليها من بعيد:
- هذه هي .. مظهرها لا يجعل النفس ترتاح إليها، و لكنها ملائمة من الداخل.
اعترض إبراهيم و هو يقف في الباب:
- ملائمة؟ إنها خم دجاج .. و هذه الرائحة؟
- أين الرائحة؟ ثم ماذا تتوقع من غرفة مغلقة؟ قلت لك سأرتبها، و عندئذ تشعر بالفارق ..

أضافت بلهجة انتصار، كأنما تكتشف غرفتها اكتشافاً:
- انظر إلى هذا السطح .. تستطيع التجول فيه كيفما شئت . و قد لا تكون بحاجة، لأن غرفتك تطل على الحي كله، و تهب عليها النسمات من كل لأطراف، و في الأمسيات يحلو الجلوس أمامها، و من النافذة ينكشف لها البحر، و من كل جهاتها تتبدى للعين مناظر

فاتنـة: خـضرة الحـدائق، جمـال القـصور، حركـة الـشوارع، مـرور الناس الذي لا ينقطع.
- و لكنها مزدحمة بأشياء عتيقة.
- سأخليها من الأشياء التي لا تريدها .. لن أبقي فيهـا سـوى الخـوان الـذي تنـام عليـه، و طـاولـة و كرسـيين، و بعـض الأغـراض فـي االزاويـة .. أنـت لا تحتـاج إلـى أكثـر مـن هـذا .. و إذا احتجـت أي شيء اطلبه مني ..
- و المنتفعات؟
- في الطابق الثالث .. عندنا ..
- في الطابق الثالث؟
- و مـاذا فـي ذلك؟! أنت لن تطبـخ و لـن تـنفخ .. و مـا تبقـى سـهل .. يمكنك أن تستخدم منتفعاتنا .. لا تتحرج، أرجوك.

استسلم إبـراهيم للـسيدة زكيـة. رغـب فـي أن يبـدي الامتعـاض لكنـه كان قد اقتنع أن ذلك لا يقدم و لا يـؤخر. و اختـصاراً للحـديث سـأل عـن الأجـرة، و دفـع عـن شـهر كامـل مقدمـاً، معطيـاً موافقـة ضـمنية على الإقامة في الغرفة بصورة دائمة.

هذا أراح السيدة زكية، عرفت أنهـا عقـدت صـفقة طيبـة، و طمحـت إلى ما هو أبعد، فعملت على ترتيب الغرفة بجد، و لـم تبـق فيهـا إلا على الخوان القديم ذي الفراش و الوسائد المحشوة بنـشارة الخـشب، و ثلاثة مقاعد و طاولة، و ركمت في الزاوية بعض الأواني العتيقـة و ألواحاً من الزجاج، و برميل توتياء لتـسخين المـاء و طـستاً كبيـراً للغسيل و أدوات مماثلة.

كان ذلك في أوائـل الـصيف، و قـد وجـد إبـراهيم الغرفـة سـيئة جـداً، لكـن أجرهـا الـضئيل نـسبياً، و اسـتقلالها عـن البيـت كلـه، و انفـراده فيها و تخلصه من اطـلاع الآخـرين علـى مأكلـه و مـشربه و حياتـه الداخلية، عوضه عن سوئها، فقـرر بينـه و بـين نفـسه أن يقـيم فيهـا، إلى أن يتيسر لـه الرجوع إلى بلده.

وضع برنامجاً أولياً لحياته خلال النهار. كان عليه قبل كل شيء أن يستيقظ باكراً لينزل إلى الطابق الثالث فيستخدم المنتفعات قبل أو تكون السيدة زكية و عائلتها قد استيقظت. كذلك كان عليه أن يملأ كوز الماء و يضعه في الزاوية الظليلة من غرفته، ثم ينزل إلى المدينة فيبتاع الخبز و الجبن و بعض المعلبات و الصحف. الكتب يشتريها من على الرصيف قرب العازرية. هناك تعرض الكتب العتيقة بأسعار بخسة. كان عليه أن يقرأ، و هذا وحده يملأ فراغ يومه و يخفف ضغط الملل الذي يستشعره في تفرده غير السامي على السطح. و قرب الظهيرة ينزل إلى السوق. يقضي في البرج حاجاته. يدخل في روع الذين يسكن عندهم أنه تغدى في أحد المطاعم، و يعود فيصعد إلى غرفته على الدرج الخشبي الموصل من الطابق الثالث إلى السطح.

لقد استمتع في الليلة الأولى من مبيته باكتشافات رائعة فيما حوله. كان البحر الأزرق الرحب في النهار قد انقلب إلى بحيرة لألاءة تنغمس فيها حزمات ضوئية تستطيل مع المدى في خطوط سهمية عريضة في البدايات مروسة في النهايات. و كانت خطوط الضوء تتقاطع، و تتراقص، و تنتشر متبعثرة أو متجمعة و من هذه الأضواء يستدل على ضخامة و فخامة الأبنية المطلة على البحر، و ما فيها من حركة تمتصها ضجة النهار. لا شك أن الزيتونة هي المجمع الرئيسي لملاهي المدينة، بدليل هذه الموسيقى الصادحة في كل جوانبها. موسيقى راقصة، و موسيقى شرقية و غناء و أصوات تظل إلى ساعة متأخرة من الليل.

و كانت الطرقات، الرئيسية و الفرعية، تعج بالسيارات و المارة، و من المسلي متابعتها و مراقبتها من النافذة أو السطح. و كان الأصيل، و نسماته الرهوة الطرية، و غروب الشمس على البحر، و الأبنية المجاورة التي تظهر أنماط مختلفة للناس عبر نوافذها المضاءة و على شرفاتها، تشكل لوحة شديدة الحيوية و مسلية جداً.

ما أزعجه كان يوم السبت. فيه تستيقظ السيدة زكية و ابنتاها باكراً لأجل الغسيل، و كان يعتبر من اللياقة أن يغض طرفه عنهن و هو يلقي تحية الصباح في طريقه إلى المرحاض أو المغسلة.

و هذا الرأي الذي اتخذ لديه صفة القناعة، كان قديماً، و قد أربكه، حتى أنه، في بعض السبوت، كان يغسل وجهه في غرفته، و ينزل إلى المرحاض العمومي في البرج ليقضي حاجته، و يغلق باب غرفته عليه، كيلا يرى نساء البيت و هي ينشرن الغسيل و يجمعنه ظهراً و مساءً.

ثم أن إزعاجاً آخر كان يستشعره من جراء "اضطراره" إلى عبور صالون الطابق الثالث، ليصعد الدرج الخشبي إلى السطح. كان المرور عبر الصالون عذاباً حقيقياً بالنسبة إليه، لأنه يلقى ثمة أهل البيت، فيكون عليه أن يحييهم، و بسبب من إلحاح السدة زكية، يجالسهم أحياناً، و يشرب القهوة معهم، و يدخل في أحاديث يحاول اقتضابها ما أمكن. غير أن أهل البيت كانوا يفيضون في أحاديثهم، و بغير حرج يتكلمون على مشاكلهم الخاصة، و يحملونه على الإصغاء و المشاركة، و كثيراً ما طلبوا رأيه في المسائل المعروضة فيحاول أن يتملص، أو يعطي أجوبة عامة، و قد يعتذر و ينسحب إلى غرفته على السطح، شاعراً بالراحة و هو بين جدرانها.

لقد علم من الأم أشياء كثيرة عن الأسرة. كانت السيدة لا تحب زوجها و لا صهرها، و ترى إلى ابنتها العزباء مخلوقاً جديراً بالرأفة و الرعاية، و هي تحمل هم مستقبلها حملاً جدياً و كان مصير الأسرة كله مرتبط بالسيدة زكية، هذه التي لا تفتأ تشكو على نحو موصول.

الأب قصير، أشعث، يملأ وجهه نمش و بقع بنية مما يطفو على الجلد عند تقدم العمر. و هو يعتمر قبعة عتيقة حوافيها مدلاة إلى تحت كأنها صحن على رأسه لانعدام الكسرة التي في قبتها، أو عدم اهتمامه بها عندما يلبسها. و بنطاله قديم، لم يعرف الكي منذ زمن بعيد، و سترته مجعدة الياقة متسخة عند القذال، و ربطة عنقه مثل بنطاله، حائلة اللون، ملتفة على بعضها، معقودة في رقبته كيفما اتفق. و كان يقوم في البيت بدور الخادم، و ينظر إليه الجميع على هذا الأساس، و من المشكوك فيه أن يكون قد عرف فراش السيدة زكية منذ زمن طويل، و لولا أنه نافع لهذا الدور الذي يلعبه مستسلماً مغلوباً على أمره، لأطرحته الأسرة من الحساب و ركنته في غرفة الغسيل مع الأشياء البالية التي لا لزوم لها. و عبثاً حاول إبراهيم، خلال الأوقات التي جالسه فيها، أو التقاه على الطريق أو على السطح، أن يخمن الوضع الجسدي الذي كان عليه أيام الشباب. كان منظره يوحي بأنه شب على هذا الشكل، و في الكهولة ازداد قصراً ليس إلا، و من الأسرار التي تحتفظ بها العائلة لنفسها، أو تتجنب السيدة زكية الكلام عليها، كيف و أين و لماذا تزوجت هذا الرجل، و ما هو الدافع الذي أغراها أو اضطرها إلى القبول به، هي التي لا تزال، برغم الكهولة، تحتفظ بآثار ملاحة، و كان لها، في صباها، جمال أورثته ابنتها المتزوجة، و ابنها الحلاق، أما ابنتها العزباء فقد جاءت على شكل والدها، مع بعض التعديل الذي تفسده عنوستها كلما تقدم بها العمر.

و كان صهرها فيليب على صورة شاب اصطناعي مما يعرض كموديل في واجهات المخازن الكبرى. إنه أشبه بلعبة كبيرة متناسقة التقاطيع، حسنة التكوين، بغير روح. و كان يعنى بلباسه عنايته بمتابعة أخبار سباق الخيل، و يبتسم، كما يتحدث باعتدال، في جلسته المتأنية التي يخاف فيها على كية بنطاله، و يحرص على ألا تلحق بسترته ذرة غبار، لذلك ينقف بسبابته و إبهامه على كتف السترةلإزالة ما يكون قد علق بها، و تتكرر حركته هذه بحكم العادة.

و لأنـه موظـف صـغير، فـي دائـرة مـا، كـان يوواظـب علـى وظيفتـه بغيـر انقطـاع، و بعـد الغـداء ينـام إلـى العصـر، ثـم يتـأنق و يـذهب، شـأنه شـأن أي مـستأجر، لا يعنيـه أمـر البيـت. و أيـام الآحـاد يكـرر أحاديثة عن السبق و الخيول، و يحلم بـربح كبيـر، و لا يؤرقـه، كمـا يبـدو، أن الحظ يخونـه كـل مـرة، و أن الـربح المتوقـع سـراب، و لا يقلقه أن العائلـة، بمـا فيهـا زوجـه، لا تنطـوي علـى أيمـا مـودة لـه، و علاقته بها تفتقر إلى الحرارة التي تكون بين زوجين شـابين، و إلـى الاعتبار اللازم له من أهل الزوجة بصفته رجلاً في البيـت، و حتـى الامتعاض الذي يظهرنه له لا يعطي أي رد فعل من قبله.

و لقد قيض لإبراهيم، خلا إقامته في غرفة الغسيل على السطح، أن يقص شعره عند الابن الحلاق، مراعـاة لخـاطر الـسيدة زكيـة، فكـان يطلـع فـي دكانـه، مـن خـلال الـصور و أحاديـث الابـن، علـى آخـر أخبار الممثلين و الممثلات في هوليود. كانـت كـاترين هيبـورن هـي ممثلته المفضلة، و قائمـة أفلام الأسبوع محفوظـة لديـه كمـا لـو فـي نشرة أو مجلة سينمائية، و كان ينصح إبـراهيم بـأن يـرى هـذا الفيلم أو ذاك، و يتكلم على كل ذلـك بحماسـة تفوق حماسـته لعملـه، و فـي الأصائل يجتمع أمام دكانه بعض فتيان الحي، و تمر البنات و تكثـر التعليقات، فـي الليـالي تـسمع عربـدتهم فـي خمـارة مجـاورة، و يكثـر تجوالهـا فـي الأمـسيات مطـاردين الفتيـات، مغنـين بأصـوات ناشـزة، بالفرنسية غالباً.

أما دخله من الـدكان فكـان ينفقـه علـى لباسـه و هواياتـه الـسينمائية و تـردده علـى ملاهـي الزيتـون التـي يعـرف برامجهـا الوجـوه الجديـدة معه الأرتيستات في كل منها.

الأم وحدها، الـسيدة زكيـة، ترفـع همـوم البيـت علـى كتفيهـا و تنـوء تحتهـا كمـن يرفـع صـندوقاً ثقيلاً و يـصعد بـه درجـاً عاليـاً، نحيلـة، وسيمة الوجه على بروز الوجنتين، ممسوحة الـصدر رقيقـة العنـق،

و شعرها الخرنوبي قد غزاه الشيب، لكنها لا تعني بصبغه. و مع كل طيبتها التي تتجلى بلطفها – على خلاف مؤجرات الغرف – لا تنقطع عن الشكوى من الزمان و الزوج و الصهر و متاعب المستأجرين.

ابنتاها فقط كانتا موضع حبها و إيثارها، لا تشكو منهما، لا ترى أي نقص أو شائبة في سلوكهما، و تجعل محدثها يستشعر حتى بدون أن تقول ذلك، أن حظهما سيء كحظها، و أنها تشفق عليهما، و تتمنى، بل و تبحث عن السعادة لهما، دون أن توفق إلى ذلك، و دون أن تعرف السبل إليه.

و كان إبراهيم قد رأى البنت المتزوجة على السطح، خلال نشر الغسيل أو جمعه، و في الأمسيات حين تصعد مع طفليها، البنت و الصبي الأصغر، إلى السطح للنزهة و ليلعب الطفلان قليلاً تحت أشرافها. كان ينسحب إلى غرفته إذا ما صعدت، و يتراجع عن الباب و يواريه تجنباً للحرج أو المضايقة. لكنه لا يستطيع من داخل الغرفة إلا أن يرى إليها و يعجب بجمالها، فهي مربوعة، ممتلئة الجسم في غير سمنة، مدورة الوجه على بياض عاجي، ذات شعر أسود و عينين واسعتين يرقد في أعماقهما نداء مبهم، و رغبات مكبوتة.

و إذ يرى ساعديها العاريين، و ما يشف عنه فستانها الحريري الصيفي من تقاطيع الجسم، يجاهد لينتزع نفسه من موقفه، و يتراجع إلى قاع الغرفة أو يتمدد على الخوان، قاسراً نفسه على تجاهلها، رافضاً بإصرار أن تقوم بينه و بينها أي صلة، لكي لا يشجعها على الدخول معه في حديث، يجر إلى استفسارات حول وضعه و سبب إقامته عندهم منعزلاً، عاطلاً عن العمل.

أما البنت الأخرى، العزباء، الصورة المنقحة عن دمامة والدها، فقد كانت مثار إشفاقه، لكنها لم تكن تحظى منه بأي اهتمام، و حتى لو

بادلها التحية فإنه كان يفعل و بصره مطرق في الأرض، و إذا ما صعدت إلى السطح، انزوى في غرفته حتى يسمع وقع خطاها هابطة على السلم الخشبي.

هكذا طوال شهرين، ظل إبراهيم لغزاً بالنسبة لهذه العائلة و قد أخفقت كل محاولات السدة زكية في جعله يختلط بهم، و عندما دعته، ذات يوم، إلى حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلاد حفيدتها شكرها بحرارة، و حمل معه هدية لائقة من السوق قدمها إلى الجدة، و تغيب عن البيت عمداً، فلم يرجع إلى بعد الحفلة بوقت طويل، متذرعاً بشغل طارئ اضطره إلى التغيب.

و لإرضاء السيدة زكية، كان يحمل، من حين لآخر، بعض الهدايا الصغيرة إليها، كما كان يدفع أجر الغرفة في موعده، بينما يماطل المستأجرون الآخرون أياماً، و قد يؤجلون الدفع من شهر لشهر، و يعبثون في البيت، مكثرين من الطلبات و المداخلات، و يقيمون السهرات و يكثرون من استقبال الزوار من زملائهم، و تضطر السيدة زكية إلى المراقبة جيداً، كيلا يأتوا بالفتيات أو النساء إلى غرفهم هذا الذي لا تمسح به أبداً.

لكل هذه الأسباب، و لأن إبراهيم ارتضى الإقامة في غرفة الغسيل على السطح بغير تذمر، و لم يتقدم يوماً بطلب أو تند عنه شكوى، فقد اعتبرته مستأجراً مثالياً. و قد زاد من إعجابها أنه لا يستخدم المنتفعات إلا في حالات الضرورة القصوى، و إذ يمر بالصالون صاعدا الدرج الخشبي إلى غرفته يمرق كطيف، لا يحدق في الغرف، و لا يلتفت إلى الجالسين في الصالون، و بصوت مهذب، هامس، يلقي التحية على من يجدهم و يتابع طريقه، حتى قالت له السيدة زكية ذات يوم "يا إلهي لماذا كل هذا الخجل و الانطواء؟" و قلت له في يوم آخر "أنت حساس إلى درجة تخشى معها أن تنزعج الأرض التي تدوس عليها" و كان هو يبتسم شاكراً، معرضاً عن الحديث الذي أحس برغبة السيدة زكية في أن تفتحه معه.

و لقد فوجئ ذات ضحى، أن السيدة زكية صعدت إليه حاملة الركوة و فنجانين، و دعته إلى تناول القهوة معها، لأنها تحس بضيق، و رحابة المناظر على السطح تفتح النفس، و الطراوة في فيء الدالية، منعشة، و كان هو، كعادته في مثل هذا الوقت، يستلقي على اسمنت السطح، تحت تلك الدالية، و يقرأ في كتاب، أو يلاحق رقاق الغيوم، في تشكيلاتها البديعة، على صفحة الماء الساحلية، الغائمة بفعل شحنة الحر التي تحملها و تصبها على الأرض عندما ترتفع الشمس و تسطع متوهجة في الظهيرة.

شربا القهوة برشفات متأنية، و طوال الوقت ظلت نظراته معلقة بشفتي صاحبة البيت. قال في نفسه: "هذه الزيارة الصباحية ليست لوجه الطراوة أو المناظر التي يتكشف عنها السطح، هناك كلام على لسان جارتي، تداريه، تمهد له، تتعمد أن يكون عرضاً، مساقاً بالحديث العام، أو متفرعاً عنه" و قالت السيدة في نفسها: "لا ينبغي أن يشعر أنني صعدت إليه بالقهوة بهدف طرح موضوع معين. السر الذي يحتفظ به لنفسه سيكون عسيراً علي انتزاعه أو الإطلاع عليه إذا استشعر رغبة متعمدة في ذلك .. لنتكلم في العموميات .. عن رأيه في الغرفة، راحته فيها، ما يحتاجه، و لأفتح له صدري. أن تفتح صدرك للآخر فأنت تشجعه، تريه بأن يفتح صدره لك".

طفقت تتحدث عن أسرتها. زوجها الذي لا يصلح لشيء، و لم تعرف الهناءة معه. صهرها البليد الذي ينفق دخله على أناقته و سباق الخيل، ابنها الطائش ، المبذر، بنتها المتزوجة المظلومة التي لم تستمتع بشبابها، و التي لم تعرف الحب، لأنها زوجتها صغيرة، و فرضت عليها الزوج الكسول فرضاً، و هي، الجميلة، كانت جديرة بأحسن الأزواج، و لكن الحظ ..

بغتة سألته و هي تتنهد:
- أليست جميلة ..

أومأ برأسه أن نعم، و قال بكياسة:
- جميلة من غير شك.
"جميلة إلى حد لغين، مغر .. و ليس جمالها مقصوراً على وجهها، هذا البدري في استدارته و نقائه، بل أن جسمها، هذا المكلثم، الملفوف، الصارخ بنداء الشهوة الحبيسة، غير المرتوية يزيد في جمالها".
و قالت السيدة:
- نعم جميلة .. الكل يشهد بذلك، الكل يراه .. إلا زوجها البليد، و هي العاقلة، الخجول لا تعرف سوى البيت، و نزهتها الوحيدة على السطح .. و أنت ..
"نزهتها الوحيدة على السطح؟ و أنا؟ ماذا عليّ أن أفعل أنا؟ هل تشكو لأنني أتهرب منها؟ و هل تصعد لأجلي؟ كي تراني؟ و هل هذا عرض لملاقاتها و محادثتها؟ و بعدئذ تأتي إلي صباحاً، و البيت فارغ، و غرفتي لا يطرقها أحد ..؟".

راح في خيال نشيط، محروم، يتابع المشهد، بينما الأم تتابع الحديث .. كان يسمع و لا يسمع. لا يعي ما تقول .. يتصور البنت، و قد وافته في مثل هذا الوقت، و ضمتهما الغرفة، و الباب مقفل .. و عارية تصير شيئاً فشيئاً، تلك الجميلة المربوعة، ذات الصدر الناهد، و الجسم المكتنز، الغض، ثم تصبح له و معه على الخوان ..

تنبه على صوت السيدة زكية يسأل:
- ستطول إقامتك عندنا؟
- لا أدري .. كل ما في الأمر أنني مرتاح، و هذه الغرفة، على السطح .. و المناظر..
- و لا تريد أن تسكن إحدى الغرف في الطابق الثاني إذا فرغ ..؟
- ربما أفعل .. و لكن غرفتي لا تضايقني .. أحب الانفراد هكذا ..
- و في الشتاء؟
- نحن في أوائل الصيف ..

- و لكن على المرء أن يحسب ..
- من طبعي ألا أحسب .. الشتاء بعيد بعد ..
- مهما يكن .. إذا فرغت غرفة و لم تأخذها فقد لا تفرغ أخرى .. تضيع الفرصة.
- لا تقلقي بشأني ..
- و لكن أنت .. ألا تقلق من هذه الناحية؟ تذكر أن هذا حي الزيتونة، و الطلاب يرغبون الإقامة فيه .. إنه أفضل أحياء بيروت ..
- أعرف ..
قالت السيدة زكية و قد ساد الصمت دون أن تتوصل إلى شيء:
- لك أهل؟
- نعم ..
- أم و أب و أخوة؟
- أم و أب و أخوات فقط .. أنا وحيد العائلة ..
- و لماذا تركتهم؟
- اختلفت معهم.
- على مال؟
- على قضية عائلية ..
- و تنوي الإقامة في بيروت؟
- لم أقرر بعد.
- تستطيع أن تعتبرنا كأهل ..
- شكراً ..
- و يمكنك أن تطلب أي شيء تحتاجه.
- عندما أحتاج إلى شيء أطلبه ..
- و لكنك لا تطلب .. هل يعقل أنك لم تحتج شيئاً طوال هذه المدة؟ المستأجرون الآخرون يدخلون بطلب و يخرجون بآخر .. الوحيد الذي لا يطلب شيئاً هو أنت .. صحيح أننا لا نرحب كثيراً برفع الكلفة مع المستأجرين، و تقتصر علاقتنا بهم على ترتيب غرفهم و تنظيفها، و لكن يحدث أن نراهم بيننا، و أن يسهر أحدهم عندنا، أو

نتبادل الأحاديث في أوقات الفراغ .. الوحدة صعبة .. كيف تقضي وقتك وحيداً؟ ألا تضجر؟

كان إبراهيم قد تمدد على اسمنت السطح، متكئاً على يده اليمنى في وضع جانبي، يحدث في السماء بنوع من ذهول، ملولاً سئماً راغباً عن استمرار الحديث الذي طال. و لم يكن في السماء ما يلفته. بدت هي الأخرى ملولاً، ساكنة في لامبالاة، علية، تتضوى بالشمس، و تعكس قبتها لوناً طحينياً فاتحاً، لا يحجب و لا يشف، و النور فضاء واسع، و عبره تنداح المشاعر و الأفكار، فيمتصها كما الدخان المصاعد من السفن في الميناء، و يحيلها إلى هباء ..

كان يجاهد ضد هذه الصيرورة الهبائية لمشاعره و قواه. ذات يوم، في بيت أهله، حاول إصلاح لوحة قديمة. كان خشب الإطار نخِراً، عتيقاً، و كان والده قد عثر على اللوحة لا يدري أين، فلما فتحها لاستخراج الصورة، تفتت الحرير المرسوم عليه لمجرد أنه مسها. لقد بليت لأنها تأطرت بين زجاج و خشب زمناً طويلاً. الاحتباس و العطالة، و هو بينهما. "قد أكون حريراً .. الحرير نفسه، على متانته، إذا لم يشم الهواء يبلى و يتفتت. لست في ملاسة الحرير و لا قوته. أن ينقطع الإنسان عن الناس، عن الحركة و الفعل، عن المشاركة، ماذا يصير إليه؟ يتعطل، يشيخ، و العمر، في هذه الحال، لا يحسب بالسنين، الشباب يشيخ. شاب شيخ، منخور كإطار اللوحة، متفتت كحريرها، تستهلكه الحسرة. المرارة في العجز عن الفعل عث. الرفض في الانسحاب من الساحة هزيمة تراجعية بطيئة. اشتم العالم، سب جلاديك و معذبيك، قل عن السوء ما شئت .. و بعد؟ ألا تعمل فلا شيء. تنتظر أعجوبة التغيير و أنت في غرفة على السطح؟

"انتظر إذن، و في الليل، عندما تنام، رش الـ د.د.ت حول فراشك ليذود عنك البق. لقد هزمتك حشرة. و هي خير منك لأنها تهاجم، تعمل، لا تخشى السحق، فالموت سهل ما دام سيأتي اليوم أو غداً،

و علـى أيـة صـورة، و مـا دام، أخيـراً، لا مفـر منـه .. فلمـاذا إذن الاختباء؟ و إلى متى؟ و ما نفع أن تمضغ المرارة، و تطل، كجندي مهزوم، من نافذة حشبية على المعركة؟".

قالت السيدة زكية قاطعة عليه سدوره في فراغ الفضاء من حوله:
- أنت لست مستاء من الإقامة في غرفة الغسيل إذن؟
- ليس تماماً .. أنت تعرفين أنها ليست مسكناً. و لكنني قنوع، لا شكوى لي، في الوقت الحاضر ..
- و أهلك؟
- لا يعرفون عني شيئاً ..
- ربما كانوا يبحثون عنك .. و ماذا سيكون حالهم إذا لم يهتدوا إليك، أو إذا وجدوك و أنت في هذا الوضع؟
- أهلي لا يبحثون عني ..
- نفضوا يدهم منك؟
- هذا ما أعتقده ..
- أنت حر إذن .. تستطيع أن تتصرف .. تشتغل مثلاً أو تتزوج ..؟
- تماماً ..
- و لماذا لا تفعل؟ ما هو شغلك في الأصل؟
- لا شغل لي .. لا أحب الشغل ..
- أنت تمزح .. هذه نكتة ..
- أنا لا أمزح و لا أنكت .. عشت دائماً هكذا: كسولاً، بليداً، أستلقي و أحدق في السقف مثل تنابلة السلطان ..
- لا أصدق ..
- صدقي ..

انقطع الحديث لحظة بينهما. تفرعت قناة جانبية لتفكير السيدة زكية، ستعمل على جعلها قناة رئيسية بحم خبرتها، غير أن خبرة السيدة زكية، في المجال الذي تفرع إليه تفكيرها كانت ضئيلة و ساذجة، و كان إبراهيم قد استشف ذلك من حركاتها المهزولة، البائسة، المضطربة أبداً، كسفينة جانحة لا يعرف ربانها تعويمها،

لأنه لا يتقن مهنة الربابنة، و قد أوكلت إليه المهمة بحم الظروف ليس إلا.

في تلك الفترة من النهار تكون الأسطحة فارغة. بين الحين و الآخر تصعد امرأة أو فتاة إلى سطح مجاور لتنشر غسيلاً أو تضع متاعاً غير قابل للاستعمال بعد، أو تقطف بعض أوراق العنب، و من النوافذ المجاورة لبيوت حي الزيتونة الفخم و المشبوه، تنفض سجادة صغيرة، تكنس حافة النافذة، أو يمسح زجاج، و قد تخرج امرأة أفاقت عند الظهيرة لأنها كانت تعمل في إحدى علب الليل، أو تقامر في أحد البيوت، فهي مخمورة أو متعبة و كالسمكة الموشكة على الاختناق تعب النسمات الشحيحة، و قد تعصر جبينها و هي تتناول قهوتها على الشرفة.

كان يحلو له أن يتابع هذه المشاهد من متكأ التنابلة الذي اتخذه تحت العريشة و فوق إسمنت السطح، و يدع نفسه تحوم حول تلك الشرفات و صاحباتها و أجوائهن و لياليهن في رحلة شرود عابثة و سنانة، صامتة في كل حال.

و قالت السيدة زكية تخرجه من هذه الحال:
- بنتي ماغي ..
فرنا إليها متسائلاً بغير كلام ..
- أقول بنتي ماغي ..
- ما بها؟
- حظها قليل المسكينة ..
- قال في نفسه: "اللعنة على الحظ" ثم أضاف: "قبح ماغي يا سيدة زكية، لا حظها هو السبب" و فكر: "ما ذنب ماغي إذا كانت قبيحة؟ لماذا يأتي أحدنا إلى هذه الدنيا جميلاً و الآخر قبيحاً؟".
عادت السيدة زكية إلى النواح:
- ماغي بنت طيبة، لكنها قليلة الحظ، قلبها مثل قلبي، و حظها مثل حظي ..

"و شكلها كشكلك الضامر أيضاً".
- تصور أنها تقبل بزبال لو تقدم طالباً يدها .

حملق فيها إبراهيم بنظرة انبغات متسائلة. تولاه إحساس بالبرودة كمن تسقط عليه زخة ماء و هو يجتاز الشارع. إن إدخال سيخ من الحديد في الخد لإخراجه من الخد الآخر يصبح مألوفاً مع التمرين. عليه أن يتمرن على أسياخ الهواء المتستر بكلمات السيدة زكية على وجهه و عنقه. ربما كانت طيبة أو خبيثة، لكنها، في كل حال، تقدم عرضاً. ابنتها تقبل بزبال لو تقدم طالباً يدها .. "أنت أقل من زبال في نظرها، ثم أنت أقل من زبال في نظر نفسك. الزبال يعمل و أنت عاطل .. أنت تعمل لأجل المستقبل و هذا ما لا تعرفه هي، و لن تقوله لها. ثم ما النفع من قوله؟ هل العمل لأجل المستقبل عمل في نظرها؟ الشهادة نفسها تظل مسحوبة على المستقبل و متوقفة على الاعتراف بك شهيداً. آنذاك لا تتوقع أن تعامل بتكرمة من الذين يرون العمل للمستقبل لا عمل، دع عنك هذا التفكير، و سيأتي يوم تجد فيه صورتك في عيون عامل ما، فلاح ما، بائع كعك، امرأة غسالة، و فئات من الذين يكدحون و يعملون للمستقبل مثلك. هؤلاء سيبسمون لك، و سيظلون، في كل الأحوال، يرون قبضتك مرفوعة فوق حقول القمح، و زندك مع زنودهم في دفع الآلات التي تتقوص ظهورهم و هم ينحنون عليها".

- ماغي بنت عاقلة، و ستكون لها حصة من هذا البيت .. و هي متواضعة لا تطلب سوى السترة .. لو طلبها ماسح أحذية ..

"الموت قريب بعيد، يا سيدة زكية، و قد تعيشين طويلاً، فما خوفك على ماغي أن تبقى عانساً بعدك؟ أنا أفهم قلب الأم، لهفته، شعوره بالذنب تجاه فلذة قبيحة منه، لكن القبيحة تجد لها قبيحاً، و قد تجد جميلاً، فالمثل يقول حظ الجميلة عند القبيحة، و مهما يكن فإنني، أنا الذي في نظرك أقل من زبال أو ماسح أحذية، ليس بوسعي أن أتزوج مثل الزبال و ماسح الأحذية .. أنني مطارد يا سيدة زكية.

فهل تفهمين ما معنى ذلك؟ هل طوردت يوماً؟ لا أقصد طراد الشباب، و لا طراد السيد زوجك بل الطراد الآخر. ملاحقة رجال الأمن لأن لك أفكاراً تشكل خطراً على عرش سيدهم؟".

قالت السيدة كية:
- و ماغي طباخة ماهرة .. هي الآن في المطبخ، لا تدعني أمد يدي إلى عمل تستطيعه، و كذلك تفعل مع أختها .. أختها لا تشبهها .. تحب الراحة و النوم و قراءة المجلات.
"أختها جميلة .. و هذا السبب".
- و في المدرسة كانت ماغي مجتهدة .. لغتها الفرنسية رائعة.
"أنا أفكر بوجهها و ساقيها".
- لماذا أنت صامت؟
- أفكر بالبحر .
- تنوي السفر؟
- أنوي الانتحار ..
خفقت كفيها على وجهها و بحركة دهشة و أسف:
- ماذا تقول؟
- أنوي الانتحار ..
- يا ربي! لا أصدق .. تقتل نفسك؟ تموت؟ من أجل أي شيء؟ خلافك مع عائلتك لا يستأهل كل هذا .. فكر ..
- فكرت ..
- ستنتحر؟
- من كل بد ..
صمتت السيدة زكية لحظة و قالت:
- تغرق نفسك في البحر؟
- في البحر ..
- و ربما تنتحر بطريقة أخر، في مكان آخر ..!
قالتها و قد جعلت عيناها تدور في وقبيهما بحركة مذعورة و على غير إرادة حانت منها التفاتة جهة غرفة الغسيل.
قال إبراهيم:

- لن أنتحر في غرفتك على كل حال ..
- أنت لن تنتحر أبداً .. قل هذا .. أرجوك ..
- لا أستطيع الوعد .. ربما غيرت فكري و ربما نفذت ما اعتزمته ..
- إذن لن أتركك وحيداً ..
- وجودك بقربي يؤنسني .. تفضلي بالبقاء ما شئت ..
- و لكنني مضطرة لشراء بعض الأغراض .. سأذهب إلى السوق، و في غيابي سأبعث ماغي لتبقى إلى جانبك .. أنت اليوم متضايق .. يا إلهي! لا أتصور كيف تجرؤ على قتل نفسك .. ماغي ..
قال إبراهيم بنبرة جد و هو يصطنع هيئة عبوس نافذ الصبر:
- لا ترسلي أحداً .. قلت لك لن أنتحر هنا .. و لن أنتحر بهذه السهولة .. سأفكر في الأمر .. ما قلته مجرد خاطر .. أنت لا تخطر لك خواطر سود أحياناً؟
- يحدث .. في هذه الحال أتمنى الموت .. أسأل الله أن يأخذ روحي .. و لكن الله يعرف أنني غير جادة، و أنها فشة خلق لا أكثر ..
- اعتبري ما قلته فشة خلق إذن ..
- فشة خلق لا تكون هكذا .. أنت مصمم .. أرى هذا في وجهك .. سأبعث إليك بماغي ..

قال إبراهيم في نفسه :" السيدة تريد قلب مزاحي إلى جد .. إذا جاءت ماغي لا بد من الانسحاب إلى الغرفة، و إذا طال ترددها على السطح لا بد من الرحيل، و لكنني مضطر إلى البقاء فسيكون علي احتمال الأم و البنت .. و لئن عجزت فإن ضجري خليق بأن يدفعني لإلقاء نفسي من الطابق الثالث."

قال في نفسه أيضاً: "ماذا لو اعتقدت السيدة زكية أنني عازم على الانتحار فعلاً؟ ثم ماذا لو أخبرت ابنتها و عائلتها و مستأجريها؟ المزحة اللعينة قد تنقلب إلى جد ألعن .. الكلام مع امرأة يجب أن يكون على درجة من الحذر يقي المتكلم ورطة غير متوقعة".

أضـاف: أنـا ابـن كلـب غجـري .. لـم أتقيـد بأصـول اللعبـة لإنـسان يختبـئ و عليـه أن يـتكلم أقـل مـا يـستطيع، النـضال و الثرثـرة لا يجتمعان. السيدة زكية لسان طلق لأمرين: اللطف أو الشكوى و أنـا أخشى اللطف و أضيق بالشكوى.

قالت السيدة زكية:
- إذا لم يكن لـديك سبب آخر فـإن ضجرك يعود إلـى هذه الوحـدة القاتلة التي أنت فيها. قلت لك انزل إلينـا. فـي النهـار أنـا و مـاغي و إيفيـت، و فـي الليـل زوجـي و ابنـي و المـستأجرون.. تـستطيع أن تتسلى قليلاً. أنا لا أسمح لماغي بالـذهاب إلـى السينما بمفردهـا .. و إيفيت متزوجة و زوجها غيور. صفة لعينة فيه مثل الكسل، و لكنـه يتسلى هو الآخر، و هي؟

تكلمت أيضاً فأصـغى إليهـا مبتسماً، كـان يرغـب فـي إزالـة الرعـب الـذي خلفـه فـي نفسها كلامـه علـى الانتحـار لكنـه لاذ بالـصمت لأن اهتمامها به زاد إلى حد تقديم عروض مغريـة، فـوق أنـه خشي أن يوقظ إصراره على النفي اعتقادها بأنه منتحر كما زعم.

و حين ودعتـه و انحـدرت عبـر الـسلم الخشبي الـضيق، استدار فـي فيء الدالية و استلقى على ظهره متابعاً التواصل مع البعد السمائي، محمـولاً علـى فـراغ ركـوده الـذهني كأنمـا يحـبس أنفاسـه و هـو عل سطح الماء.

...

بعد قليل صـرّت الخـشبات العتيقـة تحـت أرجـل جـسم يـصعد إليـه. تظاهر بالنوم كيلا يقع بالحرج. انقلب على جنبه معطيـاً ظهـره لـذلك الجـزء مـن الـسطح حيـث ينـشر الغـسيل عـادة، و كـان علـى يقين لا يدري سببه أن هذه إيفيت و ليست ماغي. لعله استدل على ذلك من صرير الخشب تحت وطء جسم ثقيل. بـات يترقـب أن يـسمع صـوتاً

أو حركة يعرف منهما الصاعد إيه، لكنه فوجئ أن خشبات السلم صرت من جديد، معلنة نزول الصاعد الذي توقف في فوهة السطح قليلاً ثم تابع طريقه. رجع وحيداً ضجراً بحكم الوضع و البطالة. أنشأ يكلم نفسه بغير صوت:

"ماغي فتاة بعد كل شيء. إنسانة هادئة و منكمشة، من النوع الذي يعرف حجمه و حقيقته و لا يغالط نفسه فيهما. غيرها كان يسعى، بالتظرف، باصطناع خفة الدم، بالحركة و الصلاة الإبتهالية إلى الإله الذي يعبد، أن يجعل السماء تمطر معجزة، و لو من نوع مطر الصيف الذي تحمله سحابة عابرة. ماغي لا تفعل شيئاً، ربما وطنت نفسها على تقبل بتولتها و ندرتها إلى قديس ما. هذه العانس قبل الأوان صارت عانساً مع أن قطار الزواج لم يفتها. أقسى ما في أمرها شعورها الحاد بهذا الجفاف في عالم يمور بالماوية من حولها. حي الزيتونة و أمها تحالفا على إنماء شعورها هذا، و لعلها ترفض أن ترضى بزبال أو ماسح أحذية ... و قطعاً لم تفكر به على نحو ما فكرت أمها، لكنها تذبل كالورقة الخريفية في قلب الصيف. نسغ الشجرة لا يصلها. و هي، في الارتواء غير المجلوب حتى في الحلم، لا تستقي عاطفة تبعث الدم في الجسم. إنها بحاجة إلى صدمة كهربائية لإيقاظ الخلايا الهاجعة، صدمة عاطفية لهز المشاعر الصدئة، و أنت، أيها الإنساني الكلي التقدير، غير مستعد لأن تكون صدمة هذا النوع. حب الذين أنت في بيتهم محال عليك. هذا واحد من البنود غير المدونة في الدفاتر لأيما مناضل سابق، لكنها أعراف كرستها ظروف التجارب، و من باب السلامة أن تتقيد بها، و أن تفعل ذلك إلى الدرجة القصوى، مادامت ماغي على هذا اليباس الذي لا أمل معه في أي عصير يرطب جوفك الملفوح بنار الحرمان الجهنمية".

صرّت خشبات الدرج كرة أخرى. صريرها أشبه بالأنين. عليه أن يستدير بظهره إلى فوهة السطح، لولا أنه غير متلائم مع لعبة العفاف المكذوب، و غير قابل للانفتاح على الزائر العزيز لعالمه

الإسمنتي المسور بالأحجار. السيدة زكية تراقبه و لا شك. أرصادها مشرعة العيون و الآذان بعد تلك النكتة العجفاء مثل صدرها الممسوح. و لكي يتخلص من تلصص الفوهة السطحية إلى يمينه، من الأفضل أن يدلف إلى غرفته. هناك يقرأ أو يكتب. يفعل ما يحلو له سوى التدخين، هذه الحسرة التي لا علاج لها بسبب من أن رذيلتها المشتهاة تحتاج إلى نقود لا يملكها.

...

نهض متثاقلاً و سار باتجاه الغرفة. لم يلتفت إلى فوهة الدرج برغم رغبته في أن يفعل، و عندما استلقى على الخوان كان مطمئناً إلى أن البق لن يهاجمه لو أغمض.

البق ينام في النهار. يلطو في الشوق الخشبية و ثقوب المسامير و المفاصل، إنه في كل خشبة يجد له مسرباً، فإذا كانت الأخشاب عتيقة، و الغرفة خشبية كلها، هيكلاً و سقفاً و أثاثاً و أدوات رثة، مخلعة، مكسرة، مركومة في الزوايا، فإن البق واجد سلطنة يرتع فيها مع ذراريه المتوالدة بكثرة مقرفة، لا سبيل إلى الكفاح ضدها إلا بالحرق الكامل.

لقد جرب مكافحة البق بقتله سحقاً. كان يمزق بعض ثيابه و يستخدمها في ذلك فتتبع الخرقة بالدم النتن و تلوث أصابعه، و تزكمه رائحة كريهة زنخة، مقززة لا تحتمل، و عندما كان يطفئ الضوء لينام كانت تزحف عليه أرتال بقّية من مختلف الحجوم، يكفي أن يمسح رقبته أو ظهره أو هده لتهر منها أعداد مفزعة، و عندئذ كان ينتعل حذاءه و يدوسها و يخبطها بأية خشب أو أداة قريبة منه.

غير أن إبراهيم، و هو يستلقي على الخوان، لم يقو على كبح رغبة حكية في أن يقلب طراحة الخوان و يرى إلى أعشاش البق في

الخشب تحتها، في نظرة حقود عاجزة، النظرة نفسها التي يطالع بها الذين لهم خواص البق .. لقد كان هؤلاء "البقيون" من الكثرة و التكاثر بحيث ملأوا كل مسارب الحية الخشبية العتيقة التي تسود بلده. و هو قادر على دفع حياته ثمناً لعراك مع خصم حقيقي، خصم من أولئك الذين لا تتأذى إذا نظرت إليهم، و لا تتسخ كفاك إذا لمستهم، و في وسعك، في قراع من أي نوع، أن تقع منهم على جسد صلب لا مادة هلامية دبقة، مصقعة، كتلك التي لقناديل البحر.

إن كدراً ما، مجهول المصدر، كان يستولي عليه الآن و هو منطرح على الهوان، و قد عزاه إلى تلك النكتة غير الموفقة عن انتحاره، و إلى رؤية البق يمور في شقوق الخشب، لكنه لم يجزم بأن أحد هذه السببين كان مصدر كدره، و لا كذلك خيبة توقعه أن تصعد إيفيت إليه، كان البقيون أو الهلاميون من الناس يبعثون شعوراً مرضياً فيه، شعوراً محزاً لأنه لا يستطيع شيئاً تجاههم، و لأنهم لا يذوبون في الشمس، و لأن هذه الشمس غير ساطعة أصلاً، فهم يرتعون في ظلمة تقيهم التفسخ، بما فيها رطوبة حاضنة لجميع الزواحف السامة.

غادر الخوان بحركة عصبية، مدفوعاً بهياج نفسي مكبوت. راح في الغرفة و جاء. توقف. استأنف السير، تذكر كلمات السيدة زكية. لعن نفسه لأنه تبسط معها في الحديث، و قرر أن يكون لطيفاً و حذراً في علاقاته مع أهل البيت.

كانت الشمس تستلقي أشعة حريرية وهاجة على البحر. كانت ساطعة، محرقة، حقيقية، و لكنها لا تبلغ كل الزوايا العفنة للحياة الجارية. إن "الهلاميين" يتحجبون منها في الظل. لا يتعرضون لها و هي لا تطالهم. و حتى إذا غادروا أوكارهم ظللتهم الشماسي في الطرقات. يسيرون و على رؤوسهم مظلات غير مرئية. إنهم بق ينتشر في الظلمة، فإذا سطع الضوء اختفوا، و لقد يدركون و يباد بعضهم، لكنهم يتناسلون و يتكاثرون.

تصور، بعدئذ، بقة تسير في الشارع. تسير مظللة محمية. و تسائل: من الذي يبسط ظله على بقة؟ إنها بقة أكبر و لا شك. البق يحمي بعضه بعضاً، و من العبث مكافحته بغير الحرق. أن تحرق كل الأخشاب البقية دفعة واحدة، و تدع النار تتعالى كما في ناقلة بترول تشتعل في عرض البحر.

لاب في الحيز الضيق للغرفة الخشبية التي يعكس سقفها التوتيائي وقدة الشمس المتلظية في الخارج، و لكي يستروح النسمات التي تسعف في تبريد جسمه المحرور، هرع إلى النافذة و مد رأسه باتجاه البحر، و شرع يتابع بارة ترسل دخاناً و هي تخرج من الميناء إلى الأفق المائي الذي تنتهي عند تخومه حدود الرؤية. ظل يتابع الباخرة حتى صارت نقطة سوداء مستطيلة و بعيدة، و تفرق الدخان الذي تنفثه و تصاعد ليلتحق بالغيوم الرقاق التي تتوزع في الفضاء المائل جهة الأفق.

إن للباخرة رحلة تتوقف خلالها في موانئ كثيرة، و للإنسان أيضاً رحلة يتوقف فيها في موانئ كثيرة. و كما الباخرة تذهب و تجيء، في رحلة المبتدأ و المنتهى، و تمر بموانئ عديدة مرات عديدة، كذلك الإنسان يفعل. عليه أن يقوم برحلة الحياة، و أن يمتلئ بأشياء و يفرغ أشياء، أن يأخذ و يعطي، أن يكون نافعاً على نحو ما، و قد آمن هو بهذه الضرورة، و لأجلها عمل و يعمل، تشرد و يتشرد، و لسوف يتابع الطريق، إذ لا طريق غيره، مادام لا يريد أن يكون بقة تلطو في ثقوب الأخشاب العتيقة في النهار لتخرج فتمتص الدماء في الظلمة.

و قال في نفسه: "ها أنا في مرفأ جديد من رحلة الحياة المتعددة المرافئ. إنني أرسو بانتظار الإبحار. أرسو مضطراً حتى تسنح فرصة السفر، و حتى تعود الجريدة التي أعمل فيها إلى الصدور، و تكف الملاحقة بحقي. حكم حسني الزعيم كان انقلاباً مفاجئاً لم

يتوقعه أحد و لم تعرفه سورية قبل الآن .. ترى إلى أين يصل الوضع؟ أتكون هذه بداية المسبحة، و تكر حباتها بعد ذلك بالتتابع؟ هذا الانقلاب رد فعل للنكبة، فما هي ردود الأفعال التالية على رد الفعل هذا؟".

اختفت الباخرة نهائياً عن ناظريه. ابتلعها المجهول المائي الذي تمخر عبابه الآن، و هي تتهادى تحت السطوع الشمسي لرحلة الصيف العذبة في البحر. كل شيء هادئ حولها، السماء و الماء و الفضاء الرحب الذي ينداح على مد النظر. و كل شيء هادئ حوله. حي الزيتونة ينام في النهار و يستيقظ في الليل، و الأبنية الشاهقة ذات الشرفات كالرفوف، و النوافذ كالعيون المبعثرة في جسم هيكل بالغ الضخامة يجللها صمت مريب، قائظ، تعب، مثل كل الأشيءا في المدن الكبيرة، و عند العصر يستفيق الحي رويداً رويداً، يتمطى، يتثاءب، و ينفض النوم عن عيون أرهقها السهر لتعاوده من جديد. و يف الليل تسطع الأضواء ة و تعلو الضحة، تعمر الطرقات، و تبدأ حياة جديدة، حافل، كالكرنفال في أكثر مواسمه إقبالاً.

فجأة، على السطح المجاور، ظهرت فتاة. ارتد إلى الداخل كيلا تراه. تكون عادة في ثياب البيت. تنشر الغسيل أو تجمعه أو تسقي الأزهار. في الأصائل فقط تبدو في زينة كاملة و هي تتنزه، و تطل من علّ على الشوارع و الأبنية المجاورة. ربما تراقب مرور شخص ما بعينه، شخص عزيز قضت النهار تفكر به. ما أسعد هذا الشخص إذن. سيمر و ينظر إليها فتلتقي العيون في نظرات مخطوفة و مبهجة. يخفق قلب لقلب، و تبوح العيون، و تومئ حركات الأيدي في تلوحة كخطف المروحة، ثم يذهب و يجيء و تتنقل هي من طرف إلى طرف على السطح، و ينتظم الجسدين سلكان من ارتعاشة الحب و الشباب، الارتعاشة التي تختزل كل فرحة اللقيا و كل شوقها أيضاً.

كانت النزهات التي تقوم بها هذه الفتاة على السطح و تمتد حتى الغروب، مبعث راحة نفسية لإبراهيم . في هذه الحال كان ينسحب إلى غرفته حتى لا يعكر عليها هناءتها و حريتها في التصرف. و بكثير من المودة كان يتابع حركاتها التي تشبه حركات فراشة في حقل هي وحدها السارحة المارحة فيه. لم يكن يحس تجاهها بأي إحساس سيء. براءتها لجمت نوازعه، و ظهورها على السطح كان إنساً له، إذا افتقده يوماً استشعر بنقص هام، و بفراغ و وحشة.

و ليس جمالها وحده، بل عذوبتها أيضاً، كانت تملأ نفسه بالرضى. إنها أشبه بطالبة ثانوية، نضجت قبل الأوان، لكنها احتفظت بكل مرح و عفوية الطالبة، و قد ذكرته بأخته، و بشيء عزيز عليه إلى درجة أنه كان مستعداً إلى إغماض عينيه بنشوة و هو يستعيد صورتها في خاطره. و كان يكفيه أن تكون جارته، لكي يتذوق حلاوة علاقة إنسانية ذات نكهة خاصة، كتلك التي تنشأ بين إنسانين غريبين و من بلد واحد. و قد رغب أكثر من مرة أن يتفحص هذه العاطفة التي نشأت لديه تجاه الفتاة، فردها حيناً إلى وضعها الطبقي المماثل لوضعه كما يظهر من بساطة ثيابها، و ردها حيناً آخر إلى كونها من عائلة عمالية بدليل ألبسة العمل الزرق التي تنشرها على السطح، و عزا هذه العاطفة إلى جو البراءة التي تند عن حركات الفتاة و سكناتها، في عالم حي الزيتونة المزيف و الموبوء، ثم صرف النظر عن هذه التحليلات التي لا طائل تحتها، و اكتفى بهذه المتعة الروحية التي يبعثها ظهورها، و جهد كيلا تراه، بعد أن لفتها وجوده في الغرفة، و بعد أن التقت عيناهما مرة، فظهر على الفتاة الحرج و الضيق.

"أنا مسافر عابر - قال في نفسه- و من كان في مثل وضعي، لا يطمح إلى إقامة علاقة مع أي من الذين يصادفهم في المرفأ الذي يمر فيه. يكتفي بشراء باقة زهر، و يعود إلى متابعة السفر. صحيح أن مكوثي هنا طال، و ها هي ثلاثة شهور تنقضي و أنا أعلل النفس بالعمل أو العودة، و لكن شيئاً من ذلك لم يتحقق. لقد رفضت

الصحف التي قصدتها أن تستخدمني، و دار النشر التي حاولت التعاون معها أعطتني كتاباً للترجمة، و أنا أعمل فيه بصعوبة، و في كل صفحة عليّ أن أعود إلى القاموس مرات عديدة، مع قلة ثقتي من انطباق المعنى بين ما أترجمه و بين الأصل، و هذا ما يسبب لي الانزعاج، و يمنع اندماجي في العمل و رغبتي فيه".

أنهت الفتاة عملها على السطح و هبطت الدرج كما صعدت. مسكنها في الطبق الأول، و قد عرف ذلك من إطلالة عبر النافذة، سيكون عليه أن ينتظر المساء، لتصعد ثانية في نزهتها المعتادة أكثر الأيام.

استأنف إبراهيم عمله في ترجمة الكتاب، لكنه سرعان ما أطرحه و عاد إلى النافذة، يحدق في السماء الصافية، سابحاً مع غيوم صيفية رقيقة تنحدر محمولة مزقاً على أجنحة ريح رخاء إلى الأفق الطحيني الذي يرسم دائرة عريضة عند ملتقى الماء بالسماء.

...

و مضت الأيام على هذا النحو ...

مضت كما كانت، و كما ستكون طوال إقامته هنا، سوى أن زيارات الست زكية إلى السطح تكاثرت. تجاهلت موضوع الانتحار الآن. قام في ذهنها أن ابنتها ماغي قد وقعت على العريس المطلوب، لذلك فهي لا تفتأ تتحدث عنها، و تطري قناعتها و صبرها و نظافتها و جلّدها في الشغل، و بنفس الحرص تتجنب الحديث عن ملاحتها.

و بدفع منها و لاشك، زارت ابنتها ماغي السطح أكثر من ذي قبل. كانت تتعثر و هي تتقدم من الدالية التي يجلس في فيئها إبراهيم، كأنما تطأ أرضاً وعرة، و كانت تسلم في حياء و إطراق، و تصمت

قبل أن تسأله عن أي شيء يخطر في بالها و يكون فاتحة للحديث، فإذا رد عليها بكياسة، و دعاها إلى الجلوس أسدلت فستانها على ركبتيها المضمومتين، و قعدت خفرة، كأنها تدخل أول امتحان في إقامة علاقة مع شاب.

لقد كانت، فيما يبدو من كيانها المتهدل، تعاني من شعور حاد بالنقص بصفتها أنثى، و من شعور أكثر حدة بصفتها قبيحة. إنها أكبر من أخيها الوحيد، و لا شك أن السيدة زكية، عندما رزقت بهذا الولد المدلل، المفتون بكل ممثلات السينما و كل فنانات حي الزيتونة على السواء، قد مارست كثيراً من التمايز بينها و يبن شقيقها، و أدخلت في روعها أنها أقل شأناً من الصبي، و أنه يفوقها حظوة و قدرة و شأناً في كل شيء، و جاءت الدمامة الطبيعية لتعمق هذا الإحساس و تصادر قابلية المواجهة عندها.

و في شيء من الأسى لحاله و حالها معاً، كان إبراهيم يرنو إليها مشفقاً، مستغرباً لعبة الأم في أن تفرض علاقة بينهما، لمجرد تقديرها أنه في وضع سيء، يمكن معه أن يقدم على الزواج من ابنتها هذه التي تدفعها إلى هذا الموقف دفعاً فتعمق إحساسها بالإحباط. إن السيدة زكية، بطبيعة العلاقة النفعية لأفراد عائلتها، و الطبيعة النفعية للحي بأكمله، تتصور أن تلك هي كل عملية الحياة و كل طابع السلوك الاجتماعي، و أن مجرد عوز الإنسان كاف لأن يدفعه إلى قبول ما لا يقبل لو كان في وضع أفضل، و هو لا يلوم الفتاة، و يعذر الأم، لكنه يرفض عقلية التاجر الصغير هذه، في تصريف سلعة معطوبة للتخلص منها بأي شكل.

قد آلمه ذلك، لكنه كان واقعاً، و ضد هذا الواقع يكافح، و لكم تمنى لو استطاع أن يشرح المسألة للفتاة، و أن يدعوها إلى رفض تصرف أمها، و إلى النظر للحياة بعين أخرى.

و إذ تطول جلسة ماغي، و يطول الصمت، رغم المجاهدة على قطعه، كان يؤنب نفسه على هذا التصرف الأخرق، ناسياً هو الآخر أن السبب في ذلك لا يعود إليه و لا إليها، و إنما إلى فقدان اللغة المتبادلة بينهما. إن حديثاً لا ينطلق من الأشياء الخاصة، بين فتى و فتاة، لا يمكن أن يكتسب الحرارة، و لا أن يتطور إلى الأشياء العامة.

و كانت شقيقتها المتزوجة تصعد إلى السطح مرة أو مرتين في اليوم، و إذ ذاك يبتسم كل منهما للآخر دون أن يسمح إبراهيم للعلاقة أن تتقدم بالاتجاه الذي يخشى أن يتورط فيه، و دون أن تسعى الفتاة إلى دفع العلاقة بهذا الاتجاه الخطر. لقد كان بالنسبة إليها مشروع صهر للمستقبل، و هذا ما لجم تلك العاطفة التي كانت قمينة أن تتكشف عنها حياله.

الأصائل وحدها كانت تحمل إليه العزاء و النسيان. تميل الشمس إلى الغروب و يبترد الجو، و البحر أزرق رحيباً حافلاً بالنداءات يتجلى لناظريه، و الحي تعاوده الحركة، و يكفيه أن يذهب و يجيء على السطح ليستمتع ببهجة الآخرين و يشارك فيها عن بعد.

و في الأصائل كانت تصعد فتاته إلى السطح الآخر المجاور، فينسحب إلى غرفته، و يتابعها منها بكثير من الشغف و الراحة، و قد درجت، في الآونة الأخيرة، على قطف وردة تحملها في يدها، و رآها مرة تشكلها في شعرها، استجابة لصديقها الذي يمر في الشارع، أو ربما إرضاء لنزعة التجمل التي تعبر عن نفسها بهذه الطريقة الماتعة و التي كان يهواها و يحبها إلى درجة الخدر.

على أن فتاته فاجأته ذات ضحى بحركة كشفت له عن أن حيله في التخفي لم تكن تنطلي عليها. كانت تعرف أنه هناك، و أنه يراها، و يتابعها، و لم تكن منزعجة من هذا كله بالشكل الذي تصور.

نادته من طرف السح فجأة. كان يعمل و لم ينتبه إلى صعودها، و قد حسب، لأول وهلة، أن النداء موجه إلى سواه، لكن الفتاة كانت تنظر إليه عبر النافذة و تخاطبه مباشرة.

- أنت، يا سيد، لماذا تفعل هذا؟
اقترب من النافذة و قد بوغت بالسؤال و خافه:
- أنا؟
- نعم أنت ..
- و ماذا أفعل؟
- ألست الذي يسكن هذه الغرفة؟
فكر قبل أن يجيب، مستغرباً أن تحقق معه على هذا النحو و في أول تخاطب بينهما.
- نعم، أنا الذي يسكن الغرفة، ماذا تريدين؟
قالها بجفاء، مستنكراً برغمه أن يتدخل أحد في شؤونه أو يفرض نفسه وصياً عليه.
- لماذا تلقي بالنفايات إلى الزقاق تحت نوافذنا؟
- أنا لا ألقي بأية نفايات .. أنت مخطئة؟
- لست مخطئة.
- و ما هو دليلك، هل رأيتني أفعل ذلك؟
- أنا لم أرك، و لكن من غيرك يلقي بعلب التبغ الفارغة، و أعقاب السكاير؟ كان يجب أن تلقيها في سلة المهملات لا زقاق الجيران.

بهت لهذه التهمة. لم يكن يصدق أن هذه البراءة تعمد إلى هذا الظن. و هو الذي كان ينطوي لها على أقصى المودة، تجبهه بهذه التهمة الظالمة الآن.
تفرّس فيها ليكتشف ما وراء كلماتها. و حاول أن يحزر ما وراء لعبتها هذه، ثم قال بجدية و حزم:
- هل أنت واثقة مما تقولين؟
- كل الثقة!
- و إذا أثبتّ لك أنك على خطأ؟

- كيف؟
- أنا لا أرمي بعلب التبغ و أعقاب السكاير إلى الزقاق لسبب بسيط، هو أنني لا أدخن ..
- بلى تدخن .. رأيتك تدخن على السطح ..
- ربما حصل ذلك .. و لكنني الآن لا أدخن.
- كيف؟ تركت التدخين؟

تنهد و هو يثبت نظراته فيها. كان يعز عليه أن يقول لها الحقيقة، و لكنه مضطر لإثبات براءته فقال بأسى:
- لا .. لم أترك التدخين .. و لكنني ..
و سادت فترة صمت، اغتصب بعدها الكلمات ليقول:
- لا أملك ثمن التبغ، صدقيني، و لهذا لم أدهن منذ شهر و أكثر.

و استدار مبتعداً، شاعراً بالإساءة إلى كبريائه بهذا التصريح الذي كان عليه أن يحجم عنه. غير أنه، بعد ظهر ذلك اليوم بالذات، عندما عاد إلى غرفته من جولة في البرج، وجد في أرض الغرفة علبة تبغ، ألقتها جارته من النافذة و لا شك.

رفع العلبة و قبّلها، داعبها بمودة و حنان، فتحها فتناول سيكارة و أشعلها، ثم استلقى على الخوان شاعراً أن في هذه الدنيا علاقات إنسانية رائعة، قد لا يتوقعها المرء، و لا يعرفها إلا عند التعبير عن نفسها، و بذلك تترسخ، على مر الأيام، هذه الثقة بالإنسان، الكائن الذي يجعل من المشاركة، في أية صورة جاءت نسيج راحة للمتعبين.

و من جديد تناول علبة التبغ و قلبّها، و قال في نفسه:"هذه ليست رسالة، و لكن كم من الكلمات الطيبة تحمل؟ و هي ليست وردة كالتي شكلتها في شعرها ذلك الأصيل، و لكن في معناها شذى الورود جميعاً .. و ربما لم تفكر الفتاة بكل هذا ، و قد تكون فعلتها

أقرب إلى الإحسان، لكنه إحسان ليس من باب الصدقة .. إنه نفح عاطفة، و كم في هذا الوجود من عواطف كريمة ما تزال خبيئة".

قرر أن يشكرها عندما يلتقيان عبر السطحين، و فكر بالكلمات التي سيقولها، و بالطريقة التي سيقولها بها، ولكنه أبداً لم يفعل ، لم يتسع له الوقت، لأنه في اليوم التالي كان يجمع أشياءه ليرحل، فقد انتهى عهد حسني الزعيم في دمشق، و انتهى معه مبرر وجوده على السطح في بيروت.

1974

رســـــالة من أمـي

حنـــا مينـــــا

ولدي الحبيب حنا، من أمك مريانـا، و كاتبـة الأسطر بنت أختك هيفاء، تقبل يديك و تقول لك يا خالي لا تؤاخذني علـى هذا الخط و هذه الديباجة، لأن ستي تضربني إذا تفاصحت و تقول : "خالك لا يحب التنويق" [1]، و قد أقفلت البـاب حتـى لا أهرب، و جدي الذي يشرب قال لي اكتبي: "يا باطنـة كوني وسيعة تنـالي المنـى [2]" فصاحت به ستي: لا تدخل قصة الزير في المكتوب، الولد حفظ "المجراوية" من كثرة ما رددتها.

صـح، كتبـت هـذا الكـلام لبينمـا فرغـت سـتي مـن التفتـيش تحـت فراشها، و جاءت بجرائد و مجلات و رسائل منك، و قالت و هـي تشير إلى جريدة فيها صورتك و أنـت تضـع يـدك علـى خدك: لمـاذا خالك متكدر؟ قلت: هذا "بوز" [3] يا ستي! قالت: سدي "بـوزك" [4] يا مقصوفة العمر، خالك متكدر أو صحته منحرفـة، أنـت لا تعـرفين أكثر مني، لذلك نبدأ قولنا بالسؤال عن صـحته و سـلامته و شـغله و عائلته، و بعد الديباجة أقول له كلمتين فيهما نصيحة من أم لولدها.

قلـت لـستي: و لمـاذا الديباجـة؟ فقالـت: الديباجـة ضـرورية، أبـوك، وديع، سافر مرة إلى الشام و كتـب ديباجـة حلـوة لجدك، انقلـي منهـا بعض الجمل لخالك.

(ملاحظة من بنت أختك: سمعت أن والـدي نقل الديباجة من كتـاب "القول اللبيـب في إنشاء المكاتيب" و وضـع اسم جدي مكان الفـراغ، الرسالة تحفظها ستي في صندوق جهازها مـع صـورتك الشمسية و هي إلى جانبك بمنديلها "الأويا") [5].

حضرة العم العزيز و الذهب الإبريز، حفظه المولى و أبقاه آمين يـا رب العالمين.

بعد لثم يديكم الطاهرتين، و تقديم السلام إلى امرأة عمي، الدرة المصونة و الجوهرة المكنونة، نفيدكم أننا وصلنا إلى بلاد الشام، و سألنا عن ابن عمنا، فدلونا على "الكزيتة" [6] التي يعمل فيها، و صعدنا إلى عنده في الطابق الثالث، فوجدناه في وضع يرفع الرأس، له مكتب و كرسي مثل الخواجات، و ينادونه يا أستاذ، و يتكلم بالتلفون مثل الأفندية، و يكتب على أرواق نقلاً عن الراديو، و الناس يدخلون عليه و يخرجون، فقلت في نفسي: أين عينيك يا امرأة عمي ترى ابنك الذي كان في بلدنا حلاقاً على باب القشلة [7]، فصار في الشام أكابر [8]. و تذكرت يوم فتحنا له الدكان، و أخذنا المراية [9] من عندنا و الكرسي من بيت، عمه، و بقيت مشكلة البنطلون، لأن الزبائن ضحكوا عليه، و قالوا هذا الولد بالبنطلون القصير راح يتعلم الحلاقة بذقننا، و رفضوا الحلاقة عنده، فجاء إلى البيت مكسور الخاطر، و اشتكى من هذه الجهة حتى جرح قلبي، فحملت بنطلوني العتيق إلى جواد الخطاط، الخياط في البازار، فقلبه له و رتاه [10] من القعدة و الأكمام، و ألبسناه إياه بعد أن وضعنا بدل الزنار تكة [11] عمي حتى لا يقشط [12] من خصره الذي يدخل فيه المحبس [13] ... تذكرت هذه الحكاية و أنا أنظر إلى ابن عمنا على المكتب و لا أصدق عيني، و قلت: الله المعطي، و إن شاء الله لا يبطر و ينسى أصله و فصله مثل غيره، لأن ابن آدم نسّاء، و بعد أخذ ورد معه، تبين لي أن الولد مازال على حاله، لم تفسده النعمة، و ذهبنا من هناك إلى مطعم الصفا عند جسر فيكتوريا، و أكرمنا غاية الإكرام، و في المساء سهرنا في "التاترو"[14]. و في اليوم التالي رحنا إلى سوق الحميدية، و أسواق كثيرة، صدق من قال "الشام شامة و على خد الدهر علامة"، و مع هذا كله اشتقت إليكم، و اكتب هذه السطور لأطمئنكم و أسأل خاطركم، و لا يمكنني وصف كل شيء في مكتوب واحد، و الأفضل أن أخبركم بالتفصيل عند رجوعي، و في الختام لكن مني ألف سلام، و هذا ما جرى معي في بلاد العرب ... و دمتم".

صح، قرأت المكتوب لستي و أفهمتها أنه لا توجد فيه جمل حلوة لأنقلها، و لكن ستي نعرتني فبكيت، و فتح جدي النائم عينيه و قال: "يا باطنة كوني وسيعة ..." فغضبت ستي و قالت: بدل مساعدتي على كتابة الديباجة تنام و تفلقنا بباطنتك!؟. فقال جدي ملاطفاً: يا حرمة، البنت طفلة، و ما عندها خلق للتطويل، قولي أفكارك بكلمتين و ينتهي الأمر. فقالت ستي إذن اكتبي كما أقول لك، بدون زيادة و لا نقصان و بدون تنويق.

البارحة جاءني سابا بن أم مطانيوس بالجريدة التي فيها صورتك و يدك على خدك، و كما قلت لك انشغل بالي، و لكن انشغل بالي أكثر من الكلام الذي قلته. أنا لا أفهم بالنحوي، و لكن سابا، و هو ابن مدرسة، قرأ لي بالجريدة و فسرها. تقول أمي أدخلتني المدرسة لأفك الحرف و هذا صحيح، و من حرق قلبي على نفسي أنا الجاهلة نذرت تعليمك، و أخبرك بهذه المناسبة أن 14 سنة مرت و لا خبر أو مخبر من عند عمك البعيد، و لا أحد في الحارة يكتب لنا كلمتين، و أخيراً عزمت سلوم النجار على سفرة [15] طويلة عريضة، و قام كتب الديباجة في تلك الليلة و وعد في اليوم الثاني أن يبيضها، و هذا وجه الضيف [16]، و بعد سنة حملت الديباجة إلى عبد الله صباغ، الله يرحمه، فما استطاع أن يفكها، و يوم مرضت بالحمى و أنت صغير، و طلبت المدرسة ورقة من يد والدك، ما وجدنا من يكتبها، فرحت لعند المعلم نعيم –و هو كاهن الآن في أبرشية[17] الشام، رجائي أن تمر عليه تقبل يده و تلثم ذيل حبرته[18] نيابة عني، فتفضل و كتب أنك مرضت بالتفوئيد، و هذا كله جرى، و أنت صادق، و لكن ما الداعي لذكر والدك بالسوء؟ قلت أنه لم يفكر بأمر المدرسة و أنه في إجازة دائمة من التفكير، و سمع هذا الكلام بإذنه فقال: "يا باطنة كوني وسيعة ...!" و أنا انزعجت عنه، و حتى لو كان يسكر، و يضربني و لا يصلي، فهو خيمة البيت، منديل على رأسي، و لا يجوز أن تقول أنه لا يفكر، فالذي لا يفكر حمار. (ملاحظة من بنت أختك: سمع جدي هذه الكلمة فصاح: لا تكتبي هذا العلاك يا بنت! لكن ستي قالت: لا

تزعل يا ابن الأوادم، أنا أدافع عنك و أنبه الولد حتى يعرف كيف يتكلم في الجرايد، فغضب جدي و قال: دينك على دين الجرايد! و عندئذ قالت ستي: إذن اقلبي هذه الصفحة، قلبي على زوجي و قلب زوجي على الحجر!).

صح، هنا طلبت ستي أن أقرأ لها الجريدة، حتى تتذكر المسألة الثانية، فلما وصلت لجواب السؤال الثاني، أوقفتني و قالت: عندك! كل المكتوب لأجل هذا ... و نصت علي:

جوابك على هذا السؤال جعل الفأر يلعب بعب بيت عمك يا ابني، سألوك عن أهم شيء في حياتك فقلت المرأة و قضية المستقبل، و أنا فهمت أن المرأة هي المرأة، يعني زوجتك، و أولاد الحلال كثار، حملوا الجريدة و راحوا لبيت عمك و قالوا: نعيماً، صهركم في الشام عاشق! و بيت عمك عاتبوني، و قالوا ما كان الأمل من ابنك تطلع منه هذه المطاليع، فقلت لهم ابني بعيد عن هذه الأفعال، و هو يقصد زوجته، أم أولاده، لكن ابن عمك الفصيح قال: لا يا أم حنا، المرأة غير المرأة .. المرأة هنا اسم جنس (و كتب لي هذه العبارة في الورقة) و معناها كل امرأة، فلطمت على خدي لهذا الخبر، و قلت ما معقول أبداً، و صار الاتفاق أن نسأل الخوري بعد صلاة الأحد، و أنا أكتب إليك هذا المكتوب حتى أعرف الحقيقة، لأني لا أصدق و لو رأيت بعيني، فابني الذي أعقل من البنت لا تطرف عينه على غير زوجته.

و أما قضية المستقبل فهذه جيدة، عندما يقولون للإنسان، الله يستر آخرتك، يعني يجعل آخرتك أفضل، و آخرة الإنسان مستقبله، و كذلك آخرة الوطن، و وطننا من يوم فتحت عيوني على الدنيا يتعذب يا حسرتي! أيام العثمانيين ذقنا الأمرين، و كانت أيام الفرنسيين ألعن، و من اللواء هاجرنا على يد الأتراك، و من فلسطين على يد اليهود، و النتيجة؟ إلى أين؟ في الإنجيل أن من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ (ملاحظة: هنا رسمت ستي إشارة

الصليب و أضافت): و إذن، فطالما أخذوا أراضينا بالسيف فلا بد أن نأخذها بالسيف، و بيتنا الذي في اسكندرونه، و قبر أختك، و بيوت اللاجئين في فلسطين و أراضيهم؟ في هذه معك حق، و يا ليتك لم تذكر المرأة، فالنسوان سبب كل علة، و أبوك المغرم بقصة الزير يقول:

من النسوان بالك ثم بالك *** و لو قالوا نزلنا من السما (19)

و إذا كان أبوك يحفظ كلام الزير و لا ينتفع به، فاحفظه أنت و انتفع به، أي اسمع كلام الواعظ و لا تفعل أفعاله كما تقول جارتنا، و هذا ما لزم عرفناكم و السلام.

صح، قرأت المكتوب لستي فصارت تضحك، و أشارت بأصبعها إلى مكان البياض و قال: اكتبي له هنا "الصيت الحسن أفضل من المال المجموع"، و هنا "طاعة الوالدين من طاعة الله" و هنا "كن مع الحق و لا تبال" فقلت يا ستي: هذا غير ضروري فنعرتني و قالت: املئي الفراغات يا بنت. ثم جاءت في السهرة ملهوفة و قالت: اقرؤوا لي هذه الجريدة، لأن جارنا قال لي: الصحف في الشام تأخذ و تعطي مع ابنك هذه الأيام، ناس معه و ناس عليه و قال أن ماسح أحذية دافع عنه، و كتب في هذه الجريدة: حنا كان أجير حلاق و أنا ماسح أحذية ... و بعد أن قرأت لها الخبر أعطتني ربع ليرة، و طلبت مني أن أكتب لها كم كلمة زيادة، فقلت لها تفضلي نصي علي.

يا ولدي الحبيب! ماهذه الأخبار التي أسمعها عنك؟ لا تأخذ و تعط كثير مع الناس، المثل يقول "يا جبل ما يهزك ريح". أنا لا أعرف ماذا تكتب في القصص، و لكن الناس يحبون قصصك و يقولون أنها قصصهم و يدعون لك بطول العمر، و هذا يكفي، فالعود، يا ابني، لا يحن عليه غير قشره، و أنت حن على الجميع، حب الجميع، و خاصة الفقراء، ملح الأرض. و إذا كنت في ضيق أو

كدر ارجع إلى أمك و حط رأسك على صدرها. من عشرين سنة و أنت بعيد عن البيت، مرة في بلاد "بره" و مرة في بلاد "جوه" و لا أسمع أخبارك إلا من الناس و الجرايد، و لا أرى صورتك إلا فيها، و أمس ندهتني جارتنا من الشباك: يا أم حنا! طلع ابنك في التلفزيون، و ركضت على الدرج، صرت أدب أنا المرأة العجوز في السبعين، على يدي و رجلي، فلما وصلت لم أجدك، و انتظرت حتى آخر السهرة فلم تطلع، فالله يرضى عليك يا ابني، إذا كنت راح تطلع مرة ثانية طول بالك حتى ألحق و أراك!

كذلك أخبرك أن المختار [20] عاتب عليك، لأنك قلت عن بنته في القصة أن رجليها مثل قصب الذرة، هذا عيب و لا يجوز، و إذا بارت البنت تكون خطيئتها في رقبتك، و مريم السودا [21] تحبك، فلماذا بشعتها في عيني زوجها نايف الفحل [22]؟ و أمس دق الباب رجل طويل أحمر العينين، اسمه خليل العريان [23] و سألني عنك، فقلت له ابني في بلاد الشام، فقال: ابنك كتب عني، و أنا عندي قصص كثيرة مفيدة له، فحين يأتي ابعثي خلفي. و أعطاني عنوانه و صورته و هو شاب بشاربين مثل عنتر، من أربعين سنة، فأخذتها و حفظتها مع العنوان لحين حضورك. و ابن العجان يقول أن الطروسي [24] جده، و كل صياد و بحار يقول أنه قريبه، و أنا محتارة! و من طرف المحافظ و الدعاية جاء رجال و سألوا عنك، و معهم رجل غريب يتكلم العربية بشكل أعوج، قال أنه يترجم قصتك، و رأى البيت و سلم على والدك و علي، و أنا كنت في ثياب البيت و ذبت من الخجل، لماذا لم تخبرنا سلفاً؟ و هل جعلتنا فرجة في آخر عمرنا يا ولدي؟ و احزر من دلهم على بيتنا؟ "جيغا" المجنون، و كان عندنا فارس المسطول، و نحن نقول له "فارس الحمصي" فقال: بكرا ينشرونك في الجرايد، فيا خجلتنا من الجيران إذا فعلوا.

نختم بالسلام إلى الجميع، فرداً فرداً، و خاصة إلى صديقك الدكتور الذي زارنا في الصيف، و كلف خاطره بمعالجة الحارة كلها، و

الحمد لله كانت يده خفيفة على المرضى، فلم يمت منهم سوى كاترين العرجا، و جارنا شحادة، و زريق الفحام، و بنت أبو حسن، و قالوا في الحارة بعد سفره أنه دكتور بارع، لأن الدواء الذي وصفه لرمزة بنت مخول غير موجود في كل صيدليات البلد، و حتى الذين ماتوا، ماتوا مرتاحين، لأنه لم يأخذ منهم أجرة، و لأنه "دسدسهم" [25] بوجدان، و أنا شفيت على يده و الحمد لله، و آمنت به، و المثل يقول: "آمن بالحجر تبرأ" و مع ذلك أداري حالي، فلا أقطع البخور و الصلاة في شباط و لا أسمح لوالدك بسب الدين طوال هذا الشهر المبارك، و ...

صح (ملاحظة من بنت أختك هيفا) يا خالي لا تؤاخذني أني قطعت مكتوب ستي. ورديت لها ربع الليرة و استعفيت. آخ يا خالي كم تعذبني ستي بمكاتيبها و كم تضربني لأجلها. فالرجاء منك أن لا تكثر من المكاتيب و لا تتحدث في الصحف، لأن المصيبة تقع على رأسي و رأس سابا بن أم مطانيوس، و فارس الحمصي إذا لحقته قبل أن "ينسطل". فهي تضع المكتوب في صدرها، و تحمل الجريدة في يدها، و تدور علينا، و لا تكتفي بقراءة واحدة و لا اثنتين، و أنت تعرف أن سمع ستي خفيف، و علينا أن نصرخ، لأن ستي تتقمط بعصبة فوق المنديل، و تلبس في الشتاء ثلاث تنورات و قميصين و كنزتين و جاكيت، فتصير مثل الطابة الكبيرة، و صوتي يضيع و لا يصل لأذنها. و كل هذا يهون عند كتابة الجواب، و هذه المصيبة تقع عليّ وحدي.

صح، توصيك ستي أن تكتب لأم كامل و أبو فهمي برامج إذاعية، فالحارة كلها تسمعها و تحبها، و تقول لك: لماذا لا تمثل أنت معهم حتى تسمع صوتك؟

صح، طلبت ستي من جدي أن ينص لها كلمتين فرفض، و من فرحي قمت إلى جدي و قبّلته!

صح، في الختام تغني لك ستي هذا الموال:

أكتب المكاتيب و دموع العين تمحيها * و أنا ناظرة الدروب و مالي من يوديها
بالله يا كاتب المكاتيب فسر لي معانيها * و سلّم على الشام و أحباب لنا فيها

و اسم لأمك المشتاقة مريانا

1971

---

(1) نوق الشيء صففه و نمقه و تأنق فيه.
(2) بيت منظوم من قصة الزير سالم، و الباطنة هي السريرة، و المعنى: إذا صبر الإنسان ظفر، و في هذا التمني دعوة للصبر على المكاره و الصمود لها.
(3) "بوز Pose" الوضع الذي يأخذه الإنسان عند التقاط صورته.
(4) "بوز" الحلق: مخرج الكلام.
(5) "الأويا": تخاريم على شكل زهور صغيرة مشغولة بالإبرة، كانت توضع على حوافي مناديل الرأس للنساء.
(6) الكزيتة: الجريدة، من كلمة Gazeta الأجنبية.
(7) القشلة: الثكنة.
(8) أكابر: كبار، و المقصود أصحاب المقام.
(9) المراية: المرآة.
(10) رتاه: رفاه، يرفو الجورب أي يرتيه.
(11) التكة: البريم القماشي في السروال لربطه حول الخصر.
(12) يقشط: يزحل.
(13) المحبس: خاتم الخطوبة أو الزواج.
(14) التاترو: التياترو، المسرح، الملهى.
(15) سفرة: مائدة.
(16) هذا وجه الضيف: ذهب و لم يرجع – توارى.
(17) أبرشية: مطرانية – مقر المطران.
(18) حبرة الكاهن: ثوبه الكهنوتي.
(19) بيت من قصة الزير سالم. وصية الزير إلى الجرو ابن أخيه كليب، بسبب ما ذاق الزير من أذى على يد الجليلة، امرأة كليب، و شقيقة جساس قاتل أبيه.
(20) ---- (24) أسماء الشخصيات في روايتي "المصابيح الزرق" و "الشراع و العاصفة".

(25) الدسوسة أو الدسدسة، حركة أنامل الطبيب و هو يكشف على المريض و يدس أنحاء جسمه، و كلما زاد الطبيب منها كان بارعاً و صاحب وجدان في نظر الفقراء من المرضى.

الأبنوســـــة البيضاء

حنـــا مينه

ثلاثة في سيارة:مهندس و مدرسة و رسام. و السيارة تمضي في طريق صلي [1] ينساب بين حقول الزيتون و البرتقال. قال الرسام: كل هذه الحقول كانت لأسرة واحدة. هذه ضيعة جبرو. إذا قلت جبرو قلت سعادة . الناس يفهمون فوراً. كانت المنطقة مقسمة إلى ضيعات، و الأسرة التي تملك ضيعة أو اثنتين تأتي في الصف الثاني. الصف الأول يملك ثلاثاً فما فوق. كان الزيتون كل شيء .دالت دولته. الحمضيات الآن. يقلعون الزيتون و يزرعون البرتقال. يزرعون التفاح أيضاً. و قال في نفسه: "سيزان رسم تفاحات و برتقالات طبيعة صامتة... أنا لا أحب الطبيعة الصامتة. فشلت في رسم حركة النوارس و هي تصئي مذعورة. و لكني لا أريدها صامتة، جالسة على منكب الموج" .. الزيتونة شجرة مباركة. هذا في الكتب. في الاقتصاد الحمضيات تدر أكثر. البرتقال و الليمون و اليوسفي ينمو على الشاطئ. الزراعة علم .حين نتعلم أصول الزراعة سنبدل الأصناف كما بدلنا الزيتون بالبرتقال. البطاطا تهاجر، يمكن أن تزرع في الداخل، أما على الرمال فالأفضل أن نزرع الفستق [2] .. و عاد يقو ل في نفسه: "عنقها أبيض، و الشعر، على الكتفين، مروحة حريرية من خيوط. ذيل فرس مفروش. منشة في يد محمد علي الكبير.. سأرسم الشعر و هو يتطاير مع النسيم على الصخور ركزت على الوجه. لم أنجح .. رسم الوجوه فن بذاته. في شوارع روما يعطيك رسام من الدرجة الثالثة "بورتري" بخمس دقائق... أنا انطبعاي و لهذا لم أعن بالأشخصاص ... " نعم يا سيدي! الفستق .. يزرعون الآن الفستق. و هذه الحقول. "حسناً.. أنا أكلم نفسي.. يكفي.. ماذا لو نمت في مقعدي الخلفي طالما أنه فارغ، و أن أحداً لا يصغي إلى شروحي؟."

أقعى الفنان في زاروية المقعد و خرج من السيارة. كان يحس أنه ليس بداخلها، و الآن خرج نهائياً. ذهب مع أفكاره و بقي جسده مركوناً يتهزهز.

تمددت السيدة في جلسة استرخاء. رفعت يدها فجمعت الشعر المتناثر و حطته على مسند المقعد .تطلع المهندس في المرآة ليرى ما إذا كان الفنان قد نام، ثم استأنف النظر عبر الزجاج. ران الصمت. ظل محرك السارة

وحده يتكلم. كانت السيدة جميلة كايفا التي عض كتفها فتى بلزاك. قال الفنان في نفسه: "من الخير أن كتفها ليست عارية". و قال المهندس:"لو عكست المرآة ما على المقعد لرأيت ركبتيها."

السيدة اكتفت بأن شمرت الفستان عن ركبتيها. قوية الشخصية، متحدية و عصبية. المهندس صموت. تعليقه كلمة و سؤاله كلمتان. أليف إلى الحد الذي تسمح ليدك أن تربت على كتفه، و نفور حتى لتتوقع أن يقول لك في كل لحظة: "لنفترق من هنا."!

راح الفنان يرنو إلى الاثنين و يقارن بين تشكيل مؤخرة الجمجمتين. أحس بالضجر، ندم لأنه جاء. كان يرسم على الصخور. و قفت السيارة وترجل منها المهندس و السيدة. تقدما منه و نظرا في لوحته. توقف عن الرسم و مسح السيدة بنظرة. ضبطته فابتسمت:

-هل ترسمني؟

-لا أرفض.

-أعطيك نصف ساعة، و أنا في هذا الوضع، على الصخر..

-سأجرب...

قال المهندس:

-ارسم لها صورة تجريدية، تنته بأقل من ذلك!

-و لكن التجريد..

قاطعه:

-لست ضد التجريد.. أنا من أنصار عفوية الفن.. يكفي أن تصنع التكوين الآن. هيا..

-لا تأبه لما يقول (صاحت السيدة) هل وقفتي ملائمة؟

-انحرفي قليلاً ... هكذا... نعم، هكذا... ظلي ثابتة دقائق..

غادرهما المهندس، و راح يثب على الصخور مبتعداً. كان البحر عند جذورها، يثير هديراً مكتوماً، و أمواجه تلق على حوافيها. تناول حجراً قذفه في الماء، و بحث عن آخر فلم يجد. وضع يديه وراء ظهره و طفق يفكر "بناية هنا.. على عضادات.. فندق بعشرة طوابق ..مشرع للشمس و الريح.. و لك الحرية الكاملة في أن تتلاعب برسمه كما تريد.. نوافذ .. أبواب.. شرفات. غرفة نوم بحمام، و امرأة، و ضوء قمر.. نعم! غرفة نوم و امرأة و ضوء قمر، و هذا المدى الأزرق المترامي."..

رنت ضحكة وراءه. هي التي تضحك. ضحكتها فضية كرشقة أنامل على أوتار معدنية..

سأل المنهدس:

-أين صرنا؟
-حيث كنا..
و قال الفنان:
-فشلنا يا سيدي .. خذلني الشيطان..
-الذي أمامك؟
-لا .. الذي في دماغي..
قالت السيدة:
-تسميني شيطاناً؟
و قال المهندس:
-أستعمل التسمية الفنية..
و قال الفنان:
-سيدتي ملاك، لكني لم أعتد رسم الملائكة.. آسف .. يدي متصلبة.. بعض الوجوه عصي على الرسم... و وجهها..
لم تسمع.. وثبت عن الصخر دون أن تلتفت إليه. حسبها ذاهبة إلى المنهدس، فاستدارت و اتجت إلى صخرة أخرى.. تصرفت و كأنها وحيدة. لا المهندس و لا الرسام موجودان. كلاهما فشل في أن يكون، و بدت كأنا تبحث عن كائن من رسمها، من نسجها، من صنع جموحها.
لنذهب الإذن!
اقترح المهندس.
-إلى أين؟
سألت السيدة.
-إلى الجبل .. إلى الغابات.. من أين الطريق إلى كسب؟
وجه الكلام إلى الفنان..
-من هنا .. (أشار بيده) اذهبا إلى "الفرلق" و "البسيط" و استريحا في "الجبل الأخضر."
-و ماذا لو تأتي معنا؟ قالت السيدة.
عتاب؟ استثارة؟ و قال المهندس لامبالياً:
-نعم تعال معنا.. يجب أن تأتي معنا.. هناك سيكون لديك الوقت الكافي للرسم.. و ستكون دليلنا، قصدت رفيق رحلتنا، فما رأيك؟

لملم الرسام سيبته و أصباغه و فراشيه. وضع الكل في صندوق السيارة وصعد إلى مقعدها الخلفي مستسلماً إلى رغبة مبهمة. "مهمة الدليل أن يتكلم" قال في نفسه، و راح يتكلم: زيتون، حمضيات، بطاطا، فستق، و

دفيئات الخضر المبكرة. "المرحلة الزرقاء عند بيكاسو .التكعيبية و فتيات آفنيون. السيدة ذات القبعة لرنوار. ما رأيك في هرم خوفو يا سيدي؟ يقولون أن ارتفاعه و قاعدته متوازيان، منطبقان على أحدث نظريات البناء! ستي لم تعرف" الروج" ولدتي رأت جارتنا تستعمل طربوش زوجها. بللته و دعكت به وجهها. لم نصدق الخبر. طربوش الوالد أيضاً اختفى Alagracon .أين سمعت هذه الكلمة؟ كنت صغيراً. قيل أن والدها ضربها حتى الموت.. صارت قصة في الحي. زمان! الفورد كان برفراف.. هذا مفرق فطيرو.. سمعت بفطيور يا سيدتي؟ لا لن تخسري شيئاً، و أنا لم أسمع بصالون "تي هاي "لحلاقة السيدات.. و أنت يا سيدي! هل قرأت قصيدة "القول القاطع في وطء ذات البراقع "للسيوطي؟ أكيد لا.. أنا قرأتها.. نسخها رجل في الستين تزوج ابنة عشرين. مخطوطتها محفوظة في أكسفورد. مكتوب عليها بالكوفي: هذه القصيدة للشيخ جلال الدين السيوطي، العالم الجليل و اللغوي النحرير، غفر الله له، و نفعنا ببركته، آمين.."

لم يبادلاه الحديث .. لو فعلا لتبرر وجوده. حسناً! هو أيضاً لن يتحدث. تطاول على المقعد و شبك رجليه. ليكن صمت. هو يميل إليه. و لكم تمنى في لياليه، عبر الظلمة و السكون، أن ينظم سهرات صامتة: يلبس طرطوراً طويلاً، يتحزم على عباءة فيجلس متربعاً و أمامه نار يتصاعد منها بخور. الناس من حواليه صامتون، و الحديث بلا كلام. اهترأ الكلام، أصبح ضرورياً أن يقام أسبوع للصمت كما يقام أسبوع للنظافة. يسكت اللسان، يتنظف، تتطهر النفس، و ينظر الإنسان إلى داخله.

عاد المهندس ينظر في المرآة" :لماذا يشيدون الأبنية في مدينتنا على الرمل؟ إنها تنظر إلي .. ستكون لي بغير شك .المتر المربع في أبي رمانة..لا؟ القصبة أرخص في الزبلطاني". و تململت السيدة"يضع صابوناً على البلاط.. حسناً! سأجعله يركع على أربع.. سألت الطلاب: ما هدفكم من الدراسة؟ أجابوا: بناء المستقبل! واحد بينهم قال: الحصول على الشهادة لكي أتوظف !كان الصادق الوحيد بينهم... الرجال دائماً هكذا... بلداء."!
و مضت السيارة تنساب أيضاً...
كانوا داخلها و خارجها معاً. يخرجون، يدخلون، و هي تمضي. يتكلمون، صامتين وهي تمضي. ثلاثة أفواه صامتة، و ثلاثة قلوب متكلمة... و قال الرسام في نفسه" :حسناً! هذا جيد، نحن مع الطبيعة إذن" تساءل أيضاً"لو

سكتت أفواه المليون، في المدينة الكبيرة، و أفواه الملايين في المدن الصغيرة، و تكلمت قلوبهم وحدها، فما عساها أن تقول؟" تساءل كرة أخرى: "لو عرفنا ما تقوله القلوب المتكلمة، أية أسرار و فضائح كنا نثير؟."

اطرح خواطره ..من هنا رأس شمرا يا سيدتي. آثار ماري. هل أنت من هواة الآثار؟ أنا لا عرف لماذا أسموها مملكة ماري، ربما لأنها فعلت ما عجز عنه الرجال.. نحن مدينون في تقدمنا إلى المرأة...

قال المنهدس:
-خطأ..
قالت السيدة:
-صح...
قال المهندس:
-المجتمع لا يتقدم على ساق واحدة..
قال الرسام:
-الساق الجريئة.
استحسنت السيدة:
-هذه هي .. الساق الجريئة.
تمنطق المهندس:
-برهانك؟
-أنديرا غاندي..
-هذه ظاهرة شاذة.
صاحت السيدة:
-و لتكن ... تحرموننا حتى من شذوذ الظاهرة.

و قال المهندس بحسم:
-فكري بذلك أنت..

سكت .. راح يتابع الطريق، و السيدة تنظر إليه، تحتويه بنظراتها، متجاهلة "الآخر" في المقعد الخلفي. و الآخر يتابع المشهد و يفكر لنفسه "قريبة منه و بعيدة عنه. من بعيد جاءت معه، و بقربه تحافظ على المسافة و لا تذهب إليه. مقعدان في سيارة، و على المقعدين رجل و امرأة، و كل منهما، في العلاقة المتبادلة، يعتمد التوازن الذي يحفظ الكبرياء! لمن تكون

الغلبة؟ سليمان ناد، و بلقيس ظلت في العصاة، و بلقيس نادت، و سليمان ظل في الملوك! تراسلا، تسافرا، تبادلا الهدايا، و اجتمعا، و ظلت المسافة بينهما قائمة. الحب يحكمه العقل. سيدي! سيدتي! لا فائدة في حب يحكمه العقل، لعبة سليمان و بلقيس لعبة ملكين لا قلبين."!

خيل إليه أنه هو أيضاً و بأسلوب ذكي، جر إلى اللعبة الملكية. أراده لحفظ التوازن. علامة فصل تحول دون تحرك ساكنين. جاءا به من قبيل الاحتياط. صمام أمان في آلة العاطفة، و ربما في حضن الطبيعة ندما. في هذه الحال يحسن به أن يلقي بنفسه من السيارة.

بدلت السيدة جلستها. انشمر الفستان أكثر. استمرت في تجاهلها و إصرارها على إخراج رفيقها عن هدوئه المصنوع. حلت زر قميصها فبان جذرا النهدين الحليبيين. حقان من البلور على قمة كل منهما شامة وردية.

قال الرسم في نفسه" هي ذي بلقيسك يا سليمان!" غير أن سليمان لم يترك صولجان الملك. كان من الوثوق بحيث لم تخطر له لعبة إبريق الماء. هو يعرف نفسه، و يعرف أن بلقيس ستكون له. جاءت دون هدهد، و أقامت في القصر الذي أخشابه من أرز لبنان. ستأتي إلى جناحه ذات فجر.

تأتي و تقرع الباب. كيف تتصورها تأتي يا سيدي؟ أنت تعرف السرو الشربين، تعرف الأبنوس الأسود و الأحمر، لكنك لم تر أبنوساً أبيض. لا تغمض عينيك فالطريق كثير المنعطفات. شجيرة الأبنوس الأبيض، الفضية، الريانة، الفارعة، الممددة على سريرها العنبري، في الجناح اللائق بملكة الشجر، ترتعش بفعل أنفاسك النافذة خلال الجدران. الغصن يتحول إلى ذراع، و التاج المورق إلى رأس و شعر، و الجذع إلى جسم، و نحات لم يحلم، و حائك لم يحلم. مملكة سبأ أعطت أعجوبتها. دخلت في منافسة مع مملكة سليمان بلقيس تنهض من سريرها العنبري- تسوي غلالتها و تتقدم باتجاه الجناح السليماني.. و السيارة تمضي، و الرسام يتابع المشهد.

شيئاً فشيئاً، و كلما أوغلوا في الطريق، امتصت الطبيعة وقارهم المصطنع.

الأفاعي تبدل جلودها أيضاً. بدل الثلاثة جلودهم. عاد الرسام إلى الكلام.

المهندس ابتسم لنكتة عابرة. السيدة اكتشفت أن رسامها الفاشل ليس جدياً إلى الدرجة التي تضايق. طفقت ابتسامتها تعطي خبزها بسخاء. السيارة صارت على مشارف الغابات. هي كثيفة أكثر إلى أمام. هاهو عطرها يهل، و البحر، ثمة، إلى يسار، لا يرى و لكن يشم، و الشمس، و الريح، و زرقة السماء.

"اليوم هو الأحد.
و في هذا اليوم أخرجوني لأول مرة إلى الشمس
و لأول مرة في عمري ذهلت،
من بعد السماء عني بهذا القدر
و سعتها إلى هذا الحد
و زرقتها بهذا المقدار
فوقفت دون حراك

ثم جلست باحتراس على الأرض
و أسندت ظهري إلى الجدار.
الآن لا تفكير بالهموم،
و لا بالمرأة أو بالحرية
الأرض، و الشمس، و أنا...
و إني لسعيد [3]"

درجت السيارة صعوداً حتى بلغت إعلى منحدر على جانبه الأيسر لوحة تشير إلى ابتداء الغابات. هتفت السيدة: "تمهل في سيرك، أحب الغابات". قال المهندس: "في هذا نتفق". صفق الدليل" جميل! إلى الفرلق إذن! هناك الغابات الحقيقية. الأشجار غار، و الهواء عطر، الطروة مروحة من الجنة."
قالت السيدة:
-لا أحب الجنة، امضوا بنا إلى البحر.
قال المهندس:
-إلى البحر!
و صاح الدليل:

-ما أروع الفكرة!

تركوا، الآن، أنفسهم على سجيتها. نسوا المدن و أبنيتها و مدارسها. نسوا الزيتون و الحمضيات و الفستق و هجرة البطاطا.

أحسوا أنهم غير ما كانوا. خفوا، شفوا، تخلصوا من ذكرياتهم الكئيبة، و جداول الدوام و قات الساعة الثامنة.

شعر السيدة تبعثر مع الريح. استسلمت لعبث الريح، سمحت لها أن تقبلها. انتشت الريح فانثنت إلى الغابة .هزت أكواز الصنوبر فتساقط مرجان أبيض. خفقت الأغصان فانهرت الأبر الشوكية. صارت بساطاً للملكة. و من الجذوع نث صمغ و فاح و مجموعات لا عد لها من راقصات مسرح الهواء الطلق، السمراوات، الكواشف، تقدمن في صفوف صنوبرية، متحابة متشابكة، متعاقدة الأذرع، لتصنع مظلة من خضرتها للملكة.

سأل الدليل فجاءة:
-هل سمعت نداء الغابة يا سيدتي؟

نظر المهندس في المرآة، ليطمئن إلى سلامة الدليل الذي نسي على المقعد الخلفي.

-في قلب السكون، كما في ساعة التجلي، يتعالى صوت.. همس مبحوح، كما على وسادة عاشقين. الغابة ترحب، أشجارها تتوشوش.

التفتت السيدة في نظرة متفرسة. "كاتب أم رسام؟" بلقيس استشعرت برودة الرخام في قصر سليمان. ملك هو، ملك الملوك، و لكنه رب الحكمة. لماذا الحكمة، و دائماً الحكمة!؟

اقترح الدليل:
-لنفتح نوافذ السيارة.

أضاف: في البرية تخرج الفراشات من شرانقها، و في الغابة ينزع الناس أقنعتهم، و أمام البحر يرجعون أطفالاً. يدعونه يغسلهم، يتعمدون كما في

الأردن..

-الأردن! هتفت السيدة.
-أردننا يا سيدتي.. نهرنا المبارك.
هز المهندس برأسه. ما أوجع الذكرى! و رددت السيدة كمن يهمس باسم حبيب:
-أردننا! آه .. أردننا!!
قال الدليل:
-هو ذاك .. لنا ..ميراثنا.. نهرنا..

و خيم صمت، قطعه شحرور يغرد على شجرة. و الريح تجرأت. فكت المنديل عن العنق الأبيض. هرعت لتقدم خدمة للجالس في المقعد الخلفي. لكن اللعبة استثارتها. كقطة خشمت المنديل و جرته. انكشف العنق و صار المنديل يرفرف.

غار سليمان. زجرها. أغلق النافذة، فانثنت الريح، نشوى، إلى الغاب، و ترنمت، بين غصونها، بصفير شبابة.

فكر الدليل: "ماذا لو نزلت السيدة و سارت حافية على البساط الشوكي من أبر الغابة؟ تخشى أن تخزها؟ فلتفعل! يتنفس الجسم، ينقى الدم، تتجدد الحياة.
هنا ليس من أخصائي بعلم النفس التحليلي. العقد تنحل لذاتها، تخرج لتدخل في قطيع الخنازير، تغادرنا عائدة إلى أقبية المدينة، حيث ترتع في الرطوبة و العفن."

فكر أيضاً: "الغابة تنادي و نحن نتجاهل، الريح، كرسول أمين، تذهب و تجيء و نحن نتجاهل. نخاف على شيء ما: أحذيتنا، ثيابننا، وقارنا، لا أدري. سيارتنا تنساب على الشريط الإسفلتي اللاحب. علبة كبريت على الشريط اللاحب، و ثلاثة عيدان في علبة كبريت. فارهة و لكنها علبة. و الغابة عالم من الخضرة و الصمت و الأسرار... ألا يحركك النداء يا سيدتي؟ و أنت يا سيدي، أي طابق تبني الآن؟ دليلكما لا يملك سيارة .لشد ما تمنى لحظة ألا تكون سيارة، أن تتعطل! لو كان وحده فيها، لربما أتى بما يسمح لكما أن تشهدا ضده ليساق إلى المستشفى الذي لا يدخله العقلاء

و لا عيدان الكبريت .قد كان يصعد بسيارته إلى مرتفع، و يفتح كوابحها، و يدعها، على اسم الجنون، تهوي هدية غير معلبة، إلى عالم يضيق بجميع أنواع المعلبات، و يرتجف رعباً منها. يرسلها إلى الجحيم، و ينطلق بكل ما فيه من قوة التلبية، إلى الغابة التي في أعماقها المجهول. ينحدر، كأتي[4] المتنبي، إلى الوادي الأخضر، يدور بالأشجار، و يقفز فوق الأدغال، يتدحرج على العشب، و يتمرغ به، كحيوان أطلق بعد طول رباط، و يفعل ما يخطر و ما لا يخطر على بال، حتى تستنفد الفرحة فيض الطاقة، و يعود، و قد أعياه اللعب و الركض، فيستلقي في أقرب غار، تحت أول فيء، سعيداً بانفلاته، بتشرده، بجنونه، مستشعراً القدرة على ضم الحبيب، لو كان، حتى تتأوه عظام و تتهرأ شفاه.

"و لآن دليلكما ليس وحيداً، و لا يرضى أن يدعكما و يفر، فماذا لو صنعتما له بهجة؟ دعا السيارة، هنا، على الطريق. رافقاني في رحلة ننزع بها قشور قلوبنا و نلقي بها إلى النار. هيا !اتبعاني.. سأمضي بكما في تطواف لا ينتهي، عبر غابة لا تنتهي، نخطئ، نضل الطريق، ندور على محاورنا، نتلمس الشمس من فرجة بين الأشجار، لا نجد الشمس، لا نميز الجهات الأربع، نضيع .. تقف شعورنا و نحن أمام حبال الزينة للأفاعي المتدلية.. يهاجمنا الليل. نخاف. نهتز من الخوف، نموت منه إذ نسمع عواء ذئب أو زئير أسد. هذا ما أريده .الخطر! أن نواجه الخطر. الموت! أن نصل إلى حافته، ثم نعود إلى الحياة. آه يا سيدتي.. هل كنت يوماً على حافة الموت و عدت إلى الحياة؟ لو حدث لك هذا مرة، لاشتقت أبداً إليه. و أنت يا سيدي! وصلت إلى الطابق الخامس؟ لازلت ممسكاً بعصا سليمان؟ زعموا أن سليمان خشي تمرد مخلوقات الأرض و جنها من بعده، فمات و ظل متكئاً على عصاه. لم يدخل عليه أحد. رأوه و هابوه، حسبوه في الأحياء و هو في الأموات. "علو في الحياة و في الممات.. لعمري تلك إحدى المعجزات؟" و المعجزة تبطل معجزة. نفي النفي إثبات. مجد سليمان ليس أكبر من مجد حشرة الأرضة[5]. دبت إلى العصا و نخرتها.. تهاوت العصا و تهاوى الجثمان. مات سليمان، و نحن كذلك سنموت. يبقى ما عملنا، من سليمان مزاميره... نشيد أنشاده.. هيكله، و لكنهم دنسوا الهيكل... باعوا فيه و اشتروا" ..هذا بيت أبي و أنتم جعلتموه مغارة لصوص". طردهم. الذي بارك اللص عن يمينه و هو على الصليب، لعن اللصوص الذين جعلوا من الهيكل مغارة. لو عاد مرة أخرى و رأى الهيكل مغارة لطرد اللصوص بالسيف لا بالعصا. كازانتساكي فهم روح العصر، هل قرأت كازانتساكي يا سيدي؟ له كتاب اسمنه "المسيح يعاد صلبه" و

مسيحه، في القرن العشرين، يأتي و معه صفيحة بترول .. حسناً! كنت أقول.. سليمان ترك عصاه. الأصح تركته.. و أنت اترك هذا المقود قبل أن يتركك ... دع طوابقك و مشاغلك. تابعني في الغابة، السيدة أكثر استجابة منك لنداء الغابة. عم كنت أتحدث؟ أن نواجه الخطر؟ نعم! نمضي عبر دروب غير مطروقة، و في كل خطوة نكتشف مجهولاً. ذقوننا تنبت، شعرنا يطول، طعامنا ينفد، و يكون علينا أن نأكل مما نجد. و على حافة نبع يبرق ماؤه فوق الحصى، و يسيل غائراً بين الأوراق الجافة، نجلس، نقطف زهوراً تنبت في الصخور و نشكلها في شعر رفيقتنا، نرشقها وراء آذاننا، نقطع الأغصان و نقيم خيمة لنا، هي كوخ حارس و قصر سلطان. أمامها نوقد النار، و وراء الخيمة نغتسل. هناك تتعرى سيدتي. تنتصب الأبنوسة البيضاء فتتهامس لمرآها كل أشجار الدلب و السنديان. نحن لن نرى، لن نوصوص إليها من شقوق الخيمة و هي عارية. سنقاوم كي لا نفعل. نكتفي بأن نطبق أجفاننا و نحلم، و إذ تأتينا ضحكتها الفضية، و صوت انهمار الماء على الجسم، و تساقطه على الصخر، نعض على شفاهنا و نظل نحلم .. و حين تنتهي نذكي لها النار.. و في الأمسيات، على باب الخيمة، نتسامر ..نحكي عن الصبية و الوحش و ملك الجن و الغابة ... سنجد تسليات كثيرة و مسرات كثيرة ... فقط لو نخرج من علبة الكبريت، لو ندعها على جانب الطريق، ولو نقذف بها إلى الهاوية و نتخلص منها .. أن شيئاً غير عادي سيحدث عندئذ. سنستعيد أنفسنا، يسترد كياننا وجوده المسلوب، و نتحرر من القمقم الكبريتي الصغير هذا."!

أشعل سيكارة .قدم واحدة إلى السيدة و أخرى إلى السيد. تجمع في زاوية و لم يتكلم. زاد عداؤه لعلبة الكبريت. استعاد مشاعر البغضاء لجميع أنواع العلب. مدينته، تلك، الكبيرة، بدت له الآن علبة ضخمة، مقسمة إلى مربعات و مستطيلات، و هذه مقسمة بدورها إلى مربعات و مستطيلات و مثلثات و كل المتقاطعات و المقوسات الهندسية. خيل إليه أن هذه العلبة الضخمة من العتق و الصدأ بحيث لا يجدي فيها طلاء. طلاؤها القديم بدا زائفاً، مقرفاً، يؤذي النظر.. و قد عجب لأهلها، لسكان مربعاتها و مستطيلاتها العتيقة الفاسدة الهواء. وجد نفسه يهتف بصوت أصم كمن على صدره كابوس. كان الصوت يصيح: يا أهل مدينتنا العتيقة، يا سكان المربعات و المستطيلات و المثلثات و جميع علب الكبريت، اخرجوا من علبكم، من نواويسكم و جحوركم، اخرجوا، و تعروا، عرضوا صدوركم و رؤوسكم للشمس..

.."و مرة يا سيدتي.. أنت لا تصغين إلي؟ لا بأس .. أكلم نفسي.. مرة في مدينتنا القديمة، وقفت على سطحنا العالي، على سطح الطابق الخامس من بيتنا العالي، في حينا الجديد، و زفرت و شهقت .. كنت مجهداً و أكاد أختنق من اللهاث. فتحت الباب و انطلقت أثب الدرجات صعوداً. أحسست أني سردينة عاودتها الحياة، فشقت علبتها و فرت. ضاقت بالصفيح يسردنها ففرت. و على السطح أمام الجهات الأربع و المداخن و عواسج هوائيات التلفزيون، وقفت أنا السردينة التي فرت من علبتها. خسارة! لم يكن ثمة بحر، ولا مياه. الطوفان لم يحدث بعد، لكنه سيحدث يوماً. أنا أثق بذلك، لأن السخام الذي تنشره مداخننا غطى منافذ أبنيتنا. صار لزاماً أن يحدث الطوفان، و إني لأسمع دقات المسامير على أخشاب الفلك. و بانتظار ذلك ماذا تفعل السردينة التي فرت من علبتها و لم تجد ماء حواليها؟ جعلت تتأمل العلب السردينة الكبيرة، الضخمة، الخرساء من حولها .تساءلت: إلى متى يطيق السردين علبه الحجرية؟"

"تصور يا سيدي! يا صانع علب السردين، أن علبك تفتقت يوماً. ذاب لحامها و ارتفعت أغطيتها، و دبت الحياة في أسماكها فنبقت رؤوسها و خرجت هذه العلب! تضحك؟ لا يحدث هذا؟ و حتى الطوفان لا يحدث؟ كل شيء سيستمر كما كان، على نفس النسق و الرتابة و الدورة العادية؟ لا .. أنت يا سليمان الحكيم، تثق بمجد عصاك، و تحتقر مجد أرضة الأرض، و أنت يا سيدتي تريدين مجد سليمان، و لأجله تقبعين طائعة في علبة السردين .. أما أنا فقد أكون مجنوناً، و جنوني يصور لي أشياء لا يقرها العقلاء .. تأملي ماذا خيل إلي و أنا على السطح! خيل إلي أن يوما سيأتي، ترتفع فيه جميع الأسطحة عن البيوت، و تتعالى رؤوس السكان نابقة من جميع فوهات هذه الأسطحة .. لقد حبسوا أنفسهم فيها بما يكفي .. هم صنعوا السقوف و هم سجنوا أنفسهم فيها .. ألا تبنى بيوت بدون سقوف يا سيدي المهندس؟ هذه هي القضية التي تشغلني. أنا سردينة تختنق في علبتها، فارحمني يا سيدي، ارحمني."!

توقفت علبة الكبيريت ذات العجلات النملية عن الانزلاق على المدرج الإسفلتي .. كانوا تحت أقواس من الصنوبر، و على يمينهم واد في قاعه ساقية. و على يسارهم سد صغير لحجز المياه و تجميعها. خرج المهندس من السيارة، خرجت السيدة و تبعها الدليل. اتجه كل منهم منفرداً نحو المنخفض الغابي الذي فيه السد. بعد قليل تقاربوا، تواثبوا بين الأدغال،

تضاحكوا لأن السيدة خافت من الحشيش و ارتدت مجفلة إلى وراء. ملخ الرسام لها غصنا و شذبه و صنع منه عصا قدمها إليها. المهندس تعلق بغصن و ارتفع بجسمه عليه كأنه على متوازي. ركضت السيدة وراء فراشة ففاتتها .. عيدان الكبريت استحالت إلى غصون، و الغصون إلى أطفال، و الأطفال لا يعرفون الهموم. هم نسوها .. تراكضوا، تعمشقوا بالأشجار، هزوا الصنوبرات أمامهم، و غربان حومت في الجو، و ذاقوا التوت البري.

حين عادوا إلى السيارة كان قميص المهندس مفتوحاً. و وجه السيدة منوراً، أما ذراع الدليل فكانت مخرشة بشوك الديس (6) .. هذا كل ما حدث. و لم يفكروا بما حدث .. لا وقت لديهم للتفكير. انطلقت السيارة بسرعة منحدرة من الجبل إلى الشاطئ..
-البحر هناك .. صاح المهندس.
و قال الدليل:
-انظري يا سيدتي ... هذا هو البسيط، على هذا الشاطئ المحصب يمكنك أن تسيري حتى تلامسي الجبل الأقرع. عنده تستطيعين أن تجلسي على الصخر و تغمسي ساقيك في البحر.

قال في نفسه: "منذ متى لم تغمس سيدتي ساقيها في البحر؟ أنا لن أنظر إلى الماء لو فعلت. سيفسد علي الحسد صفاء نزهتي. و أنت يا سيدي! تحب البحر؟ كم مرة جئت البحر؟ أنت صياد ماهر. غزالك هذا شهادة صيد. بأية شبكة اصطدته؟ لتكن شباكك مباركة إلى أبد الدهر. انظر هذا المنحني المائي. في وسعك أن تلقي صنارتك في البحر و تطلق بندقيتك في الغابة، بوقت واحد تجلس إلى الحافة و تسند ظهرك إلى صنوبرة، بينما يدك تعبث بالزبد."

و صلوا البسيط. أشار الدليل إلى الطريق فمضوا على الشاطئ إلى بيت صغير هناك. كانت الدنيا بداية صيف مبكر. قال الرسام.
-هذا مقهي في الصيف، و في الشتاء كوخ مهجور .. سنجد فيه ما يؤكل.

بقي المهندس و السيدة في السيارة. أحسا الآن أن دليلهما يعمل بوجدان . أحسا أنه أخرجهما من اللعبة و لم يدخل فيها. أسلماه قيادهما ... انتظرا إشارته، و من بعيد راح يشير إليهما:
-تعال يا سيدي و ساعدني .. هذا المكان مقفر مثل الشاطئ. ارفع هذه

الطاولة، و ذاك الكرسي، و أنت يا سيدتي خذي المكنسة، سنتدبر أمرنا بعد رفع هذا الركام من الطاولات و الكراسي .. و أنت، يا صاحب القهى، كن ساقياً طيباً، لا تكن بليداً .. أقسم رغيفك و وزع أسماكك .. جرارك لم تفرغ كلها .. إيتنا بتلك الراقدة في الزاوية، انزع عنها سداد الطين .. الخمرة يا سيدتي، لا تعتق إلا بجرار سدادها طين. أفهم في هذه الشؤون أكثر مما أفهم في الرسم. كان علي أن أكون خماراً لا رساماً .. و من يدري .. قد أصير ذلك يوماً، أصنع مسرات للناس.

جلسوا إلى الطاولة. كل شيء لهم. السمك و الخمر الخبز. الغابة و البحر و المقهى، الشاطئ و الريح و الشمس .. بصحة سيدتي. بصحة سيدي. بصحة رسامنا. بصحة البحر و الغابة و الخمار.
أنا لن أعود معكم إلى المدينة .. هنا سأبقى.
سألاه:
-كم يوما ستمكث؟
أفرغ كأسه:
-و تسألان؟ "من ولد في بحر الخزر قبره بحر الخزر" تلك أسطورتهم و أسطورتي .. هنا، حين يصير لدي أرض، سأبني مملكتي!
رنت الضحكة الفضية:
-بصحة مملكتك إذن!
-بصحة اللوحة التي لم تتم...
-تستطيع إتمامها..
-لن أفعل..
و سألت السيدة:
-لماذا!؟
هز الرسام كتفيه..
قال المهندس:
-سيكون مشغولاً بمملكته..
-هو ذاك .. أجاب الرسام.
-و ماذا لو جئت لمساعدتك في البناء؟
-على أن لا تحمل عصا سليمان..
-و ما قصة عصا سليمان!؟ سألت السيدة.
-هذه من قصص المملكة الجديدة.
و ضحكوا..

هتف الرسام: أيها الساقي! جرة أخرى! لم يبق؟ اذهب إلى النبع و املأها .. ثم دع السيدة تضع اصبعها فيها. لا تعجب، الماء المتحول خمراً أشهى الخمور .. نعم يا سيدتي .. الماء يصير خمراً، و الخمر يصير ماء. حكمة لم يعرفها جالينوس بل الخيام. الشيء مع شيئه. كميت اللون مع كميت القد .. يقولون يا سيدي أن عمر الخيام لم يذق الخمرة، تغزل بالماء .. أنت تشك؟ كما تريد .. بصحة سيدتي التي تبتسم .. فكر: "تكون لمملكتي سيدتها التي تبتسم؟" نظر إليها و أسبل جفنيه، أطبقهما على صورة لن تبرح الشاطئ قط.

قال: اسمعا! ذات عام، قبل أن يدركني الهرم، سأبتاع على هذا الشاطئ قطعة أرض. سأختارها بعناية. بعيدة عن العمران، قريبة من البحر و الغابات، ناعمة الرمل، ملساء الحصى، مفتوحة للرياح، مكشوفة للشمس و القمر الليل. و على هذه الأرض سأقيم بناء، منارة على شاطئ، تقولان؟ ربما، إنما أنا هو الحارس و المحروس و المرشد و الزورق التائه. في الشتاء أجعله محطة يأوي إليها الصيادون و المنبوذون و الذين تكسر العواصف قواربهم، و في الصيف مسبحاً، يدخله الذين في قلوبهم توق إلى المغامرة. لن أتقاضى أجراً. من كل حكاية في الشتاء، و من كل ابتسامة في الصيف. من لا يبتسم من قلبه، و يغضب منه، و ينزعه من صدره، عند الحاجة، و يلقي به في النار، لن يدخل مملكتي. لا اعتبار إلا لهذا .. قد أقبل الرجل و أرفض المرأة، و قد أقبل الزوجة و أرفض الزوج. كل شيء يتوقف على البقعة البيضاء في الداخل. غايتي أن أرى الناس سعداء، غير مملين، فرحين، جريئين، لا يخافون العاصفة، و ليس لديهم أكياس يجمعون فيها القشور و الأصداف و حطام البيوت. أكره التفاهة، و الأشياء العادية، و الخبث الأفعواني .. و اللطف أيضاً. لن أقبل لطفاء! هؤلاء أخشى من أخشاهم. و حارج بناءي سيبقى الذين يهابون قروش البحر و ذئاب البر. قد تأتي القورش و الذئاب، و تهاجم البناء، و تدخله، و لكننا سنقاتلها حتى نبيدها أو نخرجها .. أنا لا أضمن كل شيء، كل إنسان، و لكن التجارب هي المحك، و بعدها يلقى من على الأسوار من تسلل في ثياب مزوقة.

أما في أوقات الدعة و السلام، حين لا يكون في البحر نوء، و لا على اليابسة عاصفة، فإن الخيام ستنتشر على كل أرضي، و على أبوابها، في

الليالي، تعلق قناديل ملونة. في النهار نعمل. الرجال يجلبون الماء و الطعام و يصطادون الوعول و الحيتان، و النساء يشاركن الرجال، و يبعثن النشاط و البهجة، و الأطفال يلعبون على الرمال، و يقيرون رذاذ الماء على الشاطئ!

أيها الساقي جرة ثالثة .. سيكون للسقاة و المغنين و كل صانعي الفرح مكان عندي. سنسهر في الليالي على لهب النيران .نيراننا لن نوقدها بالحطب الأخضر. سنلقي إليها باللحاء المتشقق لأشجار الكينا الهرمة، و بالجذوع اليابسة لكل شجرة ماتت و لا تزال محسوبة في الأحياء. و لن نأتي نساءنا باسم "العجل المعدس" بل باسم الحب المقدس. و من يأتي حبيبته ليلاً عليه أن يكون قد اكتسب الحق في ذلك نهاراً، عند اصطياد الوعول و مطاردة الوحوش.

و في النهارات ننظم الرحلات إلى الجبال و الغابات. و في الليالي، بعد العمل و الصيد و السباحة، يبدأ الغناء و الرقص. يخرج من البحر، و يأتي من الغابة، و قد يهبط من الجو إنسان مملكتي الأسطوري. يصعد مرتفعاً و يلقي نظرة علينا .. عينه النافذة تكشف خفايانا. مع الصدق و الصراحة و الحب و العمل و الشجاعة هو. يباركنا. غنوا! يهتف بنا، ارقصوا، كونوا سعداء و أقوياء، امرحوا لأنكم خلقتم لهذا. تمتعوا، كونوا أبنائي و أنا أحبكم.

بعد هذا يبدأ الغناء الرقص. من قلب الكون تتصاعد موسيقى الغناء و الرقص. و إذ تلتلقي الموسيقى و طلوع القمر، تخفت الموسيقى احتراماً للقمر، و تتثبت جسوم الراقصين و الراقصات، أذرعهم أرجلهم، على الوضع الذي كانت عليه. و مع أول شعاع فضي على الماء، يسمع من الغابة و البحر، عزف قيثارات غير منظورة، و تستأنف الجسوم، في حركات تعبيرية، رقصها الليلي، بطيئاً أولاً، عنيفاً بعد ذلك، حتى تتعب و تعرق، و تفرز سمومها و آلامها، و تضج الجهات الأربع بالفرحة الكبرى.

سكت الدليل. قال المهندس:

-مملكة مجنونة إذن، لا تضم سوى المجانين!

أجاب الدليل:

-أنت قلت يا سيدي، و هذا أفضل. لن يكون فيها حكماء و لا عقلاء و لا

تجار "نفوس ميتة" (7)

استأنف كلامه بعد صمت: " لن نكون بحاجة إلى الأطباء لأن عالم الشمس و الريح و الرمل و ملح البحر لا أمراض فيه و لا هو بحاجة إلى طبابة. قد يأتي أطباء، و لكن بعد أن يدعوا أدواتهم و عقاقيرهم في المدينة. و قد يأتي مهندسون، و لكن دون تفكير بالساعة الثامنة دراسة و زواجاً و جمعاً للراتب على الراتب. أما العقلاء فلا .. مصيبتنا، في هذا الشرق، أننا جميعاً عقلاء، جميعاً حكماء، بلحى طولها نصف متر، مثل لحى شيوخ الصين. هي و أنت و أنا، آباؤنا، أجدادنا، أجدادنا الأعلون، أجدادهم، كلنا، كلهم، كانوا عقلاء و حكماء، و بودي أن أقول للحكمة: بعيداً! هل جننت مرة يا سيدي؟ لما تنظر إلي مستغرباً؟ أنا لا أتهم، أسأل و لا أتهم .. لا تهمة و لا موعظة في دفاتري ... أبي عن أبي عن أبي، و أمي عن أمي عن أمي .. نقلا إلي المواعظ و ساقا التهم. أعطني السكين يا سيدي. لا تخف لن يخرج من عروقي دم. ليس فيها سوى المواعظ: (سر الحيط الحيط و قل يا الله السترة) (اتق شر من أحسنت إليه) (القناعة كنز لا يفنى) (الدنيا دار عذاب) (العين لا تقاوم المخرز) (من أخذ أمي ناديته عمي) (الأرض الواطئة تشرب ماءها و ماء غيرها) هذا هو دمي. أما عيوني فليس فيها سواد و بياض إلا من الخارج. من الداخل تهم و و خوف من التهم، إذا تكلمت اتهمت، و إذا صمت اتهمت، إذا نظرت اتهمت، و إذا أغمضت عيني اتهمت، صارت التهمة أنشوطة، نعقدها حول أعناقنا بدل الربطات، نمضي و قد شلنا الخوف. لقد دجنونا يا سيدي، و ليس في نيتي أن أقيم مدجنة أخرى. العقلاء و الحكماء و اللطفاء و تجار "النفوس الميتة" و الخبثاء من كل صنف لن يدخلوا بقعتي هذه .. ليبقوا هناك، في جنتهم. أنا سأنشئ جهنماً، ففي الشيء ينطفأ الشيء، و في جهنم تنتهي أسطورة جهنم .. أيها الساقي، جرارك مرة أخرى، و يا سيدتي إصبعك في الماء كرة أخرى."

نهض المهندس عن المائدة و سار و السيدة ظلت جالسة. الدليل كف عن الكلام. لا شيء يقال. مملكة "تدمر" بنتها امرأة. زنوبيا كانت امرأة، و كان، في عالمها رجل، ترى كيف يكون رجلها يا سيدتي؟ تفكرين؟ أمام البحر لا يفكرون، مع المدى يكونون، فاذهبي، أنت أيضاً، هو ذا سليمان خرج ليأمر الريح، و بلقيس ترنو إليه. لسوف تنهض و تتبعه، سيذهبان مع الشاطئ المحصب حتى يضعا كفيهما على الجبل الأقرع. و تبقى أنت

وحيداً. ما عادا بحاجة إليك. العقلاء لا حاجة بهم إلى مجنون. المهمة انتهت، فماذا تريد؟ كنت مسلياً، و لكن المهمة انتهت، و مملكتك أيها المجنون لا تزال خيالاً في خيال، و أمانيك قبض الريح، و جرار الصيف أتى عليها ظمأ الخريف، و ستظل هنا، كاللعنة المزدولة، كالروح الهائمة، بين الغابة و البحر، لا في تلك و لا هذا. لست وعلاً و لا شبوطاً، بل سردينة متمردة تنتظر الطوفان .. لسوف ترسم الوجه، و العنق، و الشعر، و لن تتم أبداً رسم الوجه و العنق و الشعر، ستعجزك الابتسامة، و فيها كل السر.

انهضي سيدتي! لك أقول انهضي. مكتوب أن ابن الإنسان يبقى وحده، و لكن حين يأتي في مجده سيكون معه خلق كثير. وداعاً! قد لا نلتقي، و لكننا كذلك لن نفترق. في الماء و النار و التراب و الهواء، حيثما كنت أكون، أما الآن فاذهبي. في قصة سليمان و بلقيس أن الهدهد يخرج من قصر البلور ليبحث عن الماء، ليدل عليه قافلة العطاش، و الهدهد يعرف مهمته. بدون أمر سليمان يعرفها. و بغير أمر بلقيس يمضي إليها. و إذ يسقط من حالق، تحت ضربة منقار جارج، فلن يخلي نسله الجو للكواسر أبداً..

نهضت بلقيس. شجيرة الأبنوس الأبيض، التي أغصانها فتائل قطن، و جذعها عاج مورد، و تاجها ضفائر شمس، اقتلعت نفسها من تربة عدن. سحابة تتحرك. مكتوب أن نخطف نحن أيضاً في السحب، و عند ذاك نلتقي.

مضت السيدة دون أن تلتفت. كانت تخاف أن تلتفت، و الوصايا العشر تهيب بها ألا تلتفت. و من داخل الكوخ صاح الساقي:

-أعجوبة يا سيدي، أعجوبة! جراري تفوح نداً، و خشبي تحول إلأى صندل، و كوخي مضاء و لا قناديل.

أجابه الدليل:

-تحدث إذن بما وقع. قل لمن يأتي بعدنا أننا كنا هنا .أيقاظ كالأسماك لا نيام كأهل الكهف. قل أن سليمان و بلقيس و دليلهما في الرحلة جاؤوا إليك، و أكلوا من طعامك، و شربوا من جرارك، ثم مضوا، كل في سبيله.

لملم الساقي أكوابه و انصرف. و الدليل خرج و اتكأ على الباب. أمامه، على الشاطئ، إنسانان يسيران. المهندس و السيدة، و قدامهما الجبل الأقرع، و وراءهما الكوخ، و البحر عن يسار، و الغابة عن يمين، و في

الجو طيور، و سماء زرقاء، و شمس، و ريح، و منديل حريري تعبث به الريح.

توقف المهندس، كأنما تذكر أن عليه، ساعة الوداع، أن يقول شيئاً. صاح بصوت نصف شاك نصف متهكم: "إن كنت قادراً على بناء مملكة جديدة فسورها بالإسمنت .. القروش، يا عزيزي، ظهرت في مياهنا."...

أجاب الدليل، صانعاً من كفيه بوقا.

و لسوف أفعل ذلك يا سيدي. لن أسورها بالإسمنت بل بالرجال ... في تغريبة بني هلال: أن الزناتي خليفة أقام أسواراً من الأحجار فلم ينتفع بها، و حين استبيحت مملكته قال لابنته سعدى: "و ما سياج الدار إلا رجالها .. " أما القروش التي ظهرت فستختفي، ستحملها، كالسفن، نفس المياه التي جاءت بها.

توقفت السيدة و استدارت .. كان الدليل، على الباب، مفتوح القميص، متطاير الشعر، يقف متباعد القدمين، و يداه في خاصرتيه. بدا، الآن طويلاً، قوياً، متحدياً، كأنه الإنسان الأسطوري، للمملكة التي تحدث عنها.

ابتسمت له. لوحت بيدها. و احتفنت من البحر رشقة زبد، و أرسلتها باتجاهه ذرات مع الريح، و معها هذه الكلمات:
-اذكرني، يا سيدي، إذا جئت يوماً إلى مملكتك.
فأجابها بصوت قوي، تعمد أن يكون قوياً، لتسمعه جيداً، ليسمعه كل ما فيها كل ما حولها: البحر و الغابة و الجبل الأقرع:
-الحق أقول لك أنك ستكونين فيها، بل أنت منذ الآن، و إلى نهاية الدهر، كائنة!

1970

----

(1)نسبة إلى الصل، و هو الأفعى السوداء الطويلة.

(2)الفول السوداني .

(3)من قصيدة لناظم حكمت .

(4)السيل الشديد .

(5)الأرضة :الدويبة التي تنخر الخشب.

(6)الديس: الفريز البري .

(7)رواية شهيرة لغوغول.